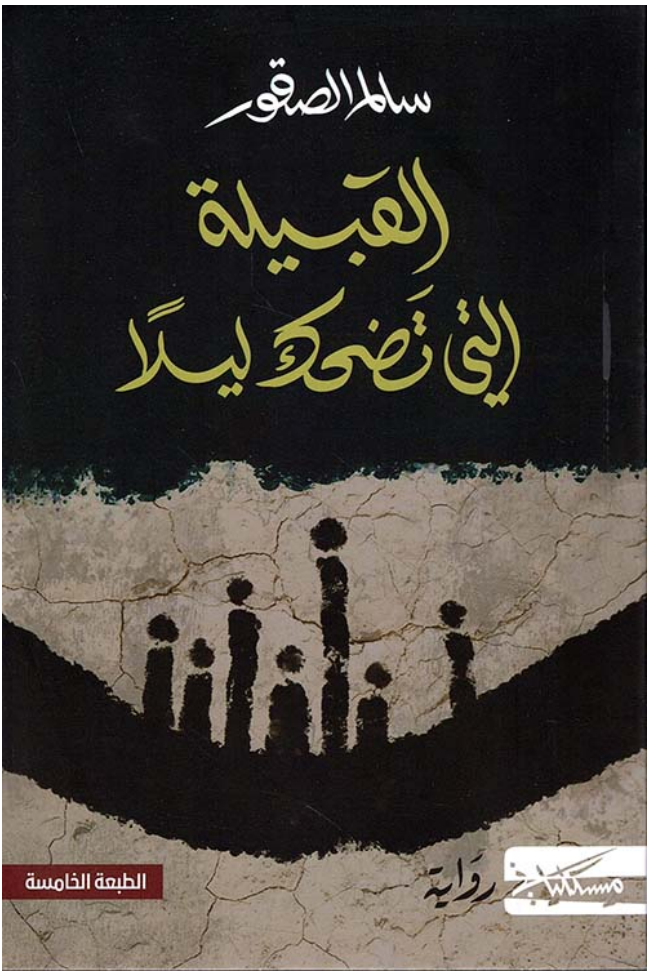

القبيلة التي تضحك ليلًا

telegram @yasmeenbook

المؤلّف: **سالم الصقور**

عنوان الكتاب: **القبيلة التي تضحك ليلا**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**

خطّ الغلاف: **سمير بن قويعة**

لوحة الغلاف: **حسن شَريّه**

ر.د.م.ك: **978-9938-979-67-1**

الطبعة الأولى: جوان 2024

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات ميسكلياني

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس

الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

telegram @yasmeenbook

سالم الصقور

القبيلة التي تضحك ليلاً

رواية

مسكلياني

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

إلى روح أبي

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

«كان عليّ أن أغادر
منذ زمنٍ بعيدٍ...
وما أخّرني إلّا انتظارُك»

آنا أخماتوفا

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

في كلّ شهرٍ قَمريٍّ يموت واحدٌ من أبنائي، فينتصب سُرادق العزاء في صدري، ولا أحد يشاركني تلك المآتم السريّة.

أقمعُ حشدًا من الشهقات المتقاذفة في مجرى أنفاسي. وأواجه بضراوةٍ جيوشَ المشاعر الثائرة فلا أترك ملمحًا في سحنتي أو رمقةً من عيني ينفذ منها أحدُهم إلى روحي إلّا قطعتُ أمامها الطريق. أُنازع، أهوي، أنعزل، أتخشّب، وأستأنف رحلة هبوطِ آدمَ الترابيِّ إلى قيعاني السحيقة والمظلمة. ثمّ أتكوّم هناك كنسرٍ عاجز عن الطيران...

من المؤلم إخفاءُ المشاعر مهما تكن، وكتمانها مهمّةٌ مُوجعةٌ خطِرة، ولربّما تبدو أشدَّ إيلامًا من نزول الجبل بساقٍ مكسورة. فهي ترفض التنازل بسهولةٍ عن حقّها في الفضيحة، وتظلّ تعصف بملامح الإنسان مثلما تفعل ريحٌ قويّةٌ بحبلِ غسيلٍ مسكين، فتتعرّى بلا خجلٍ في ماء عينيه وتُحَشْرج في صوته وترمي كلّ ما تقبض عليه في الأعماق على خريطة وجهه.

وبالرغم من ضراوة هذه المعركة التي تدقّ طبولها في كلّ شهرٍ

telegram @yasmeenbook

قمريّ، فإنّي مُطالبٌ بمشاركة من حولي أفراحَهم وسماعِ ضحكاتهم العالية والانخراط في الحياة العامة دون إثارة الانتباه، فأي عذابٍ مُركّبٍ هذا؟؟

نعم، أفعل كلّ ذلك حتّى لا أُرمى بالمجنون. سيقول الآخرون: «أين هؤلاء الأبناء والبنات الذين تقيم المآتم من أجلهم؟؟ إنّهم محض احتمالات تعيش في خيالك فحسب»، فجميعهم يعرف أنّي متزوّج منذ خمسة عشر عامًا ولم أُرزق بطفل..

telegram @yasmeenbook

الثامنة مساءً من إحدى ليالي أوغست 2022، أنتظرُ خروجَ أيّ بشرٍ من غرفة العمليّات. كان يفصلني عنها ممرٌّ طويلٌ بأصباغٍ محايدةٍ لا تُفصِح عن شيء، وفراغٌ أخرسُ لا هواء فيه يُفضي إلى باب. هذا الممرّ الكئيبُ يشبه السنوات الماضية من عمري، سنواتٍ معقّمةٍ بتدبيرٍ إلهيٍّ يمنع أيَّ مخلوقٍ جديدٍ أن يقاسمني هواءَ وحدتي. هذه الدقائق المفخّخة بالترقّب قد تنسف حياتي بأكملها، ستحدّدُ ما بقي منها وتنبش كلَّ ما مضى. فزوجتي وطفلي غير المكتمل النموّ، يرقدان معًا في غرفة العمليّات الآن.

كم هو مدمّر انتظار اللّحظات الحاسمة، التي تكون فيها مصائرُنا رهينةَ أيدٍ مجهولة. تلك اللحظات التي نكون فيها في المنتصف بين التقاء نهايتين مظلمتين، فتتحوّل كلّ الجهات إلى جهةٍ واحدة هي.. اللّا مخرج.

ثمّة منفذٌ وحيدٌ لعبور مثل هذه الأوقات المرعبة، أن يحطّ طائر الذكريات على أكتافنا ونكون مجرّد أشجار على الطريق، أن نركب قارب طفولتنا، الملاذ الآمن الوحيد الذي غادرناه ثم ندمنا كثيرًا.

telegram @yasmeenbook

منذ جلوسي أمام غرفة العمليّات وأنا أطوف بكعبة الذكريات، يحتلّ رأسي مشهدٌ وحيد، أرى اللّيلة الأولى في زواجي، كنتُ فيها ضاجًّا بالفرح، في مزاجٍ هائل، تكاد خطواتي لا تمسّ الأرض. أتنقّل بين الحضور بخفّةٍ وأردّ على تبريكاتهم بأحسن منها. الغريب أنّي كنتُ مسكونًا بشعورٍ غامضٍ: فأنا أريد لكلّ ذلك الفرح أن ينتهي بسرعة، لكنّي في الوقت نفسه لا أريدُ أن ينتهي لجماله وعذوبته.

كانت اللّيلة الأولى والأخيرة التي اجتمع فيها كلُّ هؤلاء الناس من أجلي. تدفّقتْ فيَّ نشوة عمياء، وتصادمت في دمي وخزات الخوف برعشات اللذّة، في انتظار لحظة اللّقاء المرتقب، لقاء سيصبح اتّصالًا أبديًّا وبابًا يؤدّي إلى حياةٍ جديدةٍ لا يمكن التكهّن إلى أي اتّجاهٍ ستحملنا.

لا أدري لماذا الآن وفي هذا المكان أتذكّر تلك اللّيلة التي أخذتني إلى هنا، كما لو أنّ المواقف تستعيرُ معناها من أضدادها. لعلّ هذه الذكرى نداءُ استغاثةٍ واستجداءٍ للبدايات أن تبدأ مجدّدًا أو للنهايات أن تقف عند هذَا الحدّ.

... خرج أحد مخلوقات الطبّ من غرفة العمليّات، لم يكن واضحًا أَرَجُلٌ هو أم امرأة، يرتدي لباسًا أزرقَ بكُمَّين قصيرَين وفتحةٍ مثلّثةٍ على الصدر وكمّامة ذات أبعاد غير مفهومة. فوقفت أنتظر خلف الباب الغليظ والمغلق الذي يتوسّطه مستطيلٌ زجاجيٌّ

telegram @yasmeenbook

طوليٌّ لا يسمح برؤية جيّدة، لكنّ ذلك المخلوقَ الطبيَّ دخل غرفةً قريبةً وأخذ منها شيئًا واختفى في الداخل.

يُقلقني الفريقُ الطبيُّ في غرفة العمليّات، فاستدعاؤُهم لحالةٍ طارئةٍ في يوم عطلتهم يدفعني إلى الذعر، ربّما يزعجهم ذلك ويؤثّر في مجريات الأمور. لكنّي أعود فأطمئنُ نفسي بأنّه أمرٌ يحدث يوميًّا وقد اعتادوا عليه.

.. عدتُ إلى كراسي الانتظار، وعاد مشهدُ العرس يستأنف ذاتَه. تجاوزتُ البابَ إلى بيت عمّي، فانطلقَتْ رشّاشات الكلاشنكوف من الخارج. كان الأدرينالين اللّاهب يتفجّرُ في كلّ خليّةٍ بدمي، وأنا أرى الوجوهَ الباسمة من حولي. عبرتُ حشدًا من النساء يُغنّين بأصواتٍ مكبوتةٍ ويُصفّقن بأيدٍ مُخضّبةٍ بالحنّاء، تُصقصقُ من معاصمها أساور الذهب و«أمطال» الفضّة. كانت وشومهنّ تمتدّ من أسفل شِفاههِن بخطوطٍ خضراء مندثرةٍ ومن حولها دوائرُ صغيرةٌ تنتهي بتلك الأذقان المُستدقّة، أمّا رؤوسهنّ فكانت مقطّبَةً بخرقٍ سوداء متلامعة. كنّ يُنشدن ألحانًا وكلماتٍ شعبيّةً تُغنّى غالبًا في الأعراس.

جلستُ مع زوجتي على «الكوشة» قليلًا، ثمّ نزلتُ إلى ملعبهنّ بدعوةٍ من أمّي. أخذتُ عصا خيزرانٍ دقيقةً، في البدء تعثّرت قدمايَ قليلًا، ثمّ أركبتُهما على الإيقاع. أخذتُ أدورُ بينهنّ، أنظرُ إلى فساتينهنّ، وأتنشّقُ روائحَ عطورهنّ. زفَفْنَني على أغنيةٍ لم أعد

telegram @yasmeenbook

أذكرها تشتغلُ بجهاز مسجّل «سوني» بسمّاعتيْن. كانت الشابّات منهنّ يمشين ورائي ويُطلقنَ «ملآلاة» بخبرات المبتدئين في الزغاريد. كنتُ أعيشُ كلَّ شعورٍ بمفرده، وأتلذّذ بكلّ كلمةٍ تُقال أو مشهدٍ يظهر، فتؤدّي الذاكرة دورَها وتسجّل كلَّ التفاصيل المتناهية في الصغر.

خرجتُ من بين النساء بعد أن شاركتُهنَّ ساعةً كاملةً من الاحتفال. كانت أصواتُ «رَزْفةِ» الرجال تصطكُّ في مسمعي قادمةً من الخارج. انضممتُ إليهم في أرضٍ طينيّةٍ مرشوشةٍ بالماء تحت ضوءٍ خافتٍ من سلكٍ ممتدٍّ تتدلّى منه أنوارٌ صفراء. يقفون في صفَّيْن متقابلَين فيخرج إلى الميدان واحدٌ من كلّ صفّ، ثمّ ينزعون جنابيهم المصقولة من مخابئها ويؤدّون رقصةً من طقوس الحرب. يدورون على الأرض الرطبة بحركاتٍ سريعةٍ وتوقّفاتٍ مباغتة. فتخفقُ نصالُ الجنابي اللّامعة في أكفّ الرجال مطلقةً بروقًا خاطفة. عروقُ رقابهم بارزةٌ ومنتفخةٌ ورؤوسُهم تتمايلُ طربًا. وأقدامُهم تدُمّ الأرضَ وأصواتهم الحادّة تملأ الليلَ وترتدّ من الجبال لتتوزّع بعدالةٍ على بيوت القرية. يرزف كلُّ صفٍّ مترابطين بأيديهم خلفَ ظهورهم وبأضلاعٍ ملتحمةٍ وبأداء التقاء الجيوش الذي يختزل مجتمعًا ورثَ فزع الحروب من عظام أجداده.

إنَّ هذَا الوادي مسكونٌ بالحذر من الأعداء في كلّ الاتّجاهات، ومثقلٌ بمغارم تاريخيّةٍ تجعل هذه المدينةَ تنام بعينٍ واحدة، ولم يكن بدٌّ من أن يحكموا حياتَهم بصرامةٍ ويمزجُوا حروبَهم باحتفالاتهم..

telegram @yasmeenbook

بعد دقائق وصلني الأمرُ بالانصراف. ومن هنا بدأت حياةٌ أخرى لا تشبه ما قبلها..

الزواج مثل الموت، لا أحدَ يستطيع أن يخبرك بما ينتظرك هناك، سواء كان زواجًا تقليديًّا وقَبَليًّا بمدينةٍ صغيرةٍ على تخوم الربع الخالي أو كان مدنيًّا في معرضٍ لفنون ما بعد الحداثة بباريس. الزواجُ لغزٌ كونيٌّ معقّد التركيب تنهار أمامَه كلّ النظريات. ربما الغاية النهائية من تزاوج البشر هي اعتراف بالوحدانية لآخر متعالٍ بهويته ليس له شريك يساكنه ويأنس له.

قد تفشل بعض الزيجات التي تتوفّر فيها كلُّ أسباب النجاح، وربّما تنجح أخرى مليئةٌ بأسباب الفشل. ويبقى وجودُ الأطفال صمغَ هذه العلاقة وجسرًا يعبر أحدُهما إلى الآخر من خلاله. لكنّ الحرمان من الأطفال لا يعطي عكسَ النتيجة بل يزيدها اتّصالًا وازدحامًا مأسويًّا.

.. عضلات مؤخّرتي تؤلمني من الجلوس على هذه الكراسي المعدنيّة اللّعينة في هذا المستشفى اللّعين والحياة الملعونة. انطلقَ صوتُ إعلانٍ مفزعٍ من أسقف الممرّات (كود بلو.. كود بلو..)، فشعرتُ بتصلّبٍ في عظام رأسي، شاهدت عددًا من الأطبّاء يتّجهون بسرعةٍ إلى جهة أخرى، إلى الطوارئ كما يبدو. اشتدّت عظام رأسي، وأحسستُ بأنّ أجزاء جمجمتي تكاد تنخلع.

فُتح بابُ الممرّ، وخرج طبيبٌ مصريٌّ نحيفٌ بجذعٍ علويٍّ

telegram @yasmeenbook

مائل، مقيِّدًا يدَيه خلفَ ظهره. على جانبيْ رأسه أضغاث من شعر شوكيّ أشيب كأنه نبتة في جبل، اقتربَ، وقال بضجَر: «محتاجين دم للمريضة». فسألتُه في هلعٍ عن الوضع وكم يحتاجون من الدم ومن أيّ فصيلة؟ فردّ بضجره: «متخفش.. عاوزين دم على قد ما تقدر ومن أيّ فصيلة». ثمّ استدارَ بمشيةٍ حزينةٍ. كانت إحدى يدَيه تتدلّى والأخرى ممسكةٌ بها وراء ظهره، كأنّه ممثّلٌ يختتم مسرحيّةً حزينةً وينحني لتصفيق الجمهور.

تهافتت في رأسي سيناريوهاتٌ مرعبةٌ وغامضة. أفقت من لحظات الصدمة، وتناولتُ هاتفي الجوّال من جيبي، وأرسلت في قروب العائلة حاجتي للدم. فاستنفرت القبيلة لأجلي ولمستقبلي وماضيَّ وزوجتي وطفلي غير المكتمل النموّ. بدأ الجوّالُ يستقبل الرسائلَ والاتّصالات المتداخلة والموجزة. كان الجميع في الطريق إلى المستشفى، فسرتُ في استقبالهم وقد بدأت الوفودُ تصل. دخل أحدُهم مندفعًا وهو يشمّر عن ساعده النحيل للتبرّع بالدم، وتتالى وصولُ الآخرين، وكانوا أكثر من استيعاب المستشفى وحاجته، فاختارُوا خمسةً منهم وانتظرَ البقيّة في حديقةٍ بالخارج.

تحوّل الحدثُ في تلك اللحظة عن كونه شأنًا شخصيًّا إلى شأنٍ قبليّ، فلم أعد أملك من دورٍ أو قرارٍ إلّا مثلما هو لأحدهم...

لم يقبل أيّ منهم المغادرة. كان العددُ يزداد حتّى بلغ قرابة خمسة وعشرين شخصًا، وفي أقلّ من نصف ساعةٍ امتدّت السفرة على

telegram @yasmeenbook

رصيفٍ بجانب حديقة المستشفى. وضعوا عليها الصحون المغطّاة بالقصدير، وأُجبِرتُ على الجلوس وأكلِ اللحم المندي والرز بينما زوجتي والمستقبل غيرُ المكتمل النموّ في غرفة العمليّات.

القبيلة بنكٌ اجتماعيٌّ تموّلُ أفرادَها بما يفيضُ عن حاجتهم لتأخذَ في المقابل كلَّ ما يحتاجون إليه من حرّيّةٍ واستقلاليّة، يقفون في ذلك الموقف الذي لا يتّسع إلّا لصاحبه. كلّ واحدٍ منهم يملك قوّةَ الدخول إلى حيواتنا الخاصّة بصفته شريكًا دمويًّا. الفردُ في القبيلة حارسُ مشرحةٍ للموتى، أولئك الموتَى القُدامَى الذين ينتمون لعالم ما قبل الأنا والأنت. ببساطة، أن تعيش وسطَ قبيلةٍ كأنّك تعيشُ في إحدى ضواحي جهنّم.

جميعهم اتّخذوا قرارات بدلًا منّي في قضيّة عدم الإنجاب، يشعرونني دائمًا بأنّي ثغرةٌ في حياتهم ونقطةُ ضعفهم، فيقول أغلبهم: «تزوّج وأبشرْ بسعدك»، ينطلقون من نوايا حسنةٍ تبدأ بفعل أمرٍ وتنتهي باقتحامٍ ومحاولة اغتصابٍ لإرادتي، وهؤلاء أعتبر كلامهم نيرانًا صديقةً أداويها ببعض الحُبّ الذي أحمله لهم.

الكثيرون منهم تتراقص في أعينهم الشماتة وهم يكرّرون السؤال ذاته في كلّ مناسبة: «ما بعد جاك عيال؟» ويفتعلون ردودًا عاطفيّةً ودراميّة، لكنّ رائحة حقدٍ كريهةً تفوح منها. هؤلاء قد أتركهم في حينها، غير أنّي أختار أوقاتًا مباغتةً وحرجةً لأهاجمهم في بعض جوانب حياتهم التي يكرهون الحديث عنها. أفعل ذلك ليسَ

telegram @yasmeenbook

انتقامًا، بل هي هجماتٌ معاكسةٌ تعطي نتائجَ إيجابيّةً في سلوكهم المستقبليّ نحوي.

لقد حشرتُ إصبعي أكثر من مرّةٍ في جروحٍ طريّة بحياة بعضهم، وهذَا يكلّفني كثيرًا من الندم لكنّه يبقى ضروريًّا. بعض الأخطاء عدم فعلها خيانةٌ للواجب الإنسانيّ، ونحنُ معرَّضُون دائمًا لارتكاب تلك الأخطاء التي لا بدّ منها، ويجب أن نؤجّل الندمَ عليها بعد أن نفعلها بإتقان..

كان أحدُ هؤلاء رجلًا رذْلًا وبغيضًا متقاعدًا من المباحث الجنائيّة، لدَيه مجهرٌ يتفحّص به عيوبَ الناس ونقائصَهم ويطلقُ لسانَه الحادَّ في شؤون الجميع، تتغذّى روحُه المريضة على رؤية الناس أمامه يُذلّون أو تخونهم ألسنتهم وتتبدّل ملامحُهم حين يباغتهم بأسئلته السامّة. كان يلتقيني وحدَنا فلا يأتي على ذكر أيّ شيء، حتّى إذا أصبحنَا في مجموعةٍ رجمَني بكلماته الخبيثة. ولا يكتفي بتلعثمي أو إجاباتي المقتضبة، بل يستدرجُ ألمي للخروج ثمّ يدفع بسؤالٍ أو تعليقٍ يتدحرج مثلَ صخرةٍ تسحقني. وعندها، يسند ظهرَه ويفرد كتفَيه وعلى طرفيْ شفتيه انفراجةُ لذّةٍ تحاول الاختباء.

عرفتُ أنّ ابنَه البكر، وهو موظّفٌ في موقعٍ حكوميٍّ مهمّ، قد تعرّض لحادث سيرٍ شنيعٍ ونجَا منه هو وأحدُ أصدقائه. لكنّ السرَّ الذي لا يعرفه الجميعُ، ووصلني بمصادفةٍ بحتةٍ، أنّ ابنه كان يقود السيّارة بسرعةٍ جنونيّةٍ تحت تأثير الحشيش. وقد أحالَ المستشفى

telegram @yasmeenbook

نتائجَ الفحص إلى دائرة المخدّرات، وبوساطاتٍ كبيرةٍ أُغلقت القضيّة دون أن ينتشر الخبر. فعاهدتُ نفسي ألّا أستخدمَ هذا الأمرَ إلّا إن عادَ إلى ممارسة أمراضه معي.

بعد أشهرٍ، وفي مجلسٍ مكتظٍّ بالقبيلة، اعتدل في جلسته وأخذ يطلق قذاراتٍ محمّلةً بالاستخفاف. حدث ذلك عندما أدخلَ مضيّفُنا حليبَ ناقته وأوصى ابنَه أن يدور بالغبوق على الضيوف. فقال الرذْل للصبيّ بصوتٍ جهيرٍ وهو يمرّ بجانبي: «عطه المِحْلب كلّه.. هو في حاجته دون غيره». وأردفها بضحكةٍ نجسة. كان يقصد أنّ الباقين لديهم كفايتُهم من الفحولة التي يعزّزها حليب الإبل. ابتسم البعض مجاملةً له لاتّقاء شرّه، فابتسمتُ بهدوء وقلت: «هات اللبن.. هو صادق». ثمّ تجرّعتُه بلذّةٍ وثباتٍ والرغوةُ تلطخُ شاربي العلويّ ورأس أنفي. ثمّ ناولتُه الصبيَّ وجذبتُ أنظارَ الجميع نحوي. رفعتُ عينيَّ في عينيه مباشرةً وصدمته بعنف: «أبو رائد.. علمني إيش صار على قضيّة ولدك في المخدّرات بعد حادثه وهو محشّش!!؟». هنا قذفتُ به إلى الجحيم، وكانت أنظارُ الجميع وملامحهم المحمّلةُ بالاستفهامات تفترسه. اختنق في ثيابه، وتحوّل وجهه إلى كتلة دمٍ فاسدٍ، ولم يستطع الردّ. علّقتُه في مشنقته التي ينصبها للجميع ويمارس الإعدامات النفسيّة لكلّ من حوله، وتراخى في مكانه مثلَ جثّةٍ تنهشها النسور.

ثمّ رأيت أنظار الحضور تتحوّل إلى جهةٍ أخرى من المجلس. أدرتُ رأسي، وكانَ ابنُه هناك برأسٍ يتدحرج إلى أسفل. فلعنتُ

telegram @yasmeenbook

نفسي، ونهضت إلى الخارج. مشيتُ بغير هدىً في الشوارع يعذّبني الندم بلا رأفة. فذلك الشابُّ الرائع لم يكن يستحقُّ أن يكون في موقفٍ حرجٍ شديد، ثمّ إنّ الحشيش رائعٌ ولا يستحقّ أن يكون عيبًا اجتماعيًّا. فبَين فترةٍ وأخرى أصرفُ لنفسي سيجارةَ حشيشٍ لأغراضٍ علاجيّة، وأجدُها مفيدةً عندما تجتاحني الكآبة المتّصلة أشهرًا.

وحتّى لا تتحوّل هذه الفجوةُ المفتوحةُ في جدار رجولتي إلى حمّامٍ عموميّ، اكتسبتُ خبرةً في التعامل مع كلّ الفئات: أولئك العجائز المكبوتات جنسيًّا، والحلّاق الباكستانيّ القريب الذي يسألني كلَّ أسبوعٍ عن الـ«بتشّا»، وزملاء العمل قبل نهاية الدوام بنصف ساعة، وموظّف التعداد السكانيّ كلّ أربع سنوات، وكلّ الذين تجاوزوا الستّين عامًا من أفراد القبيلة، إلّا شخصًا وحيدًا لم أستطع التعاملَ معه. كان شابًّا بجسدٍ ضخمٍ وعلّةٍ في العقل، زوّجَه أبوه بامرأةٍ فقيرةٍ من دولةٍ مجاورة، وحملت منذ الشهر الأوّل وربّما من اللّيلة الأولى، وأنجبت له ولدًا.

يُقال إنّه عندما كان رضيعًا قطعَ أبوه شجرةَ سِدر أمام بيتهم، وعندما عادت الطيور مع غروب الشمس لم تجد السدرة، فأصابها هلعٌ غريبٌ فأخذت تحوم وتتلاطم في فراغ السدرة حتّى أظلم الليل، فانتقلت تلك الروعةُ إلى الرضيع وقضى ليلَه يصرخ ويتشنّج وتتقلّب عيناه في بياضٍ مرعب، وصار في ملامحه سقمٌ مجهول.

telegram @yasmeenbook

في صغره كانت أذنه تفرز كتلَ شمعٍ يمكن رؤيتُها عن بُعد، وعندما يحلّ فصل الخريف تسيلُ منها مادّةُ قيحٍ لا تتوقّف. فلقّبوه بـ«صملوخ» على اسم تلك المادّة التي تخرج من أذنَيه بكثافة، ولم يعد حتّى أهله يتذكّرون اسمَه الحقيقيّ.

منذ خُلِق صملوخ وهو يتعرّض للتهكّم والسخريّة، ما يجعله يشعر بنقصانه أمام الجميع. وكان ذلك النقص الذي نضجَ معه منذ طفولته، يدفعه إلى تسديد تساؤلاته نحوي في المناسبات وأمام الجموع وفي مدخل البقالة، وفي كلّ مكانٍ آخر يصادفني فيه. لا يفوّت فرصةَ استهداف هذا النقص الذي باغتني القدرُ به. وبعد أن أجيبه بالنفي على سؤاله بأن لا أبناء لديّ، يبتسم ويحكي قصّةَ حمل زوجته وولادتها. فيعلو وجهَه شعورٌ بالتفوّق عندما يراني، وأصبحتُ ملعبَه الوحيدَ الذي يستطيع الفوزَ فيه. هؤلاء الذين قُدّر لهم الحياة بإعاقةٍ عقليّةٍ بسيطةٍ هم مرآةٌ تعكس بشاعةَ من يعيشون بينهم أو جمالَهم..

المشكلةُ الوحيدة التي تشعرني بالحرج والتعرّق معه أنّه يملك حنجرةَ بعيرٍ تخرق مسامعَ القريب والبعيد، ولا أأتمنه في مناسبة زواجٍ أو خِتانٍ أن يُخرِج خصيتَيه ليتحدّاني أمام الجميع. وقد حاولتُ رشوتَه أكثر من مرّة. قابلته صدفةً في مطعم يمنيّ يشتهر بالفطور والمقالي، وهو يحبّ الأكلَ بلا حدودٍ، فطلبت له كلَّ ما يشتهيه على حسابي، ولم تفلح تلك المحاولةُ إذ أقبل عليَّ صوتُه كالثور الهائج في أولّ مناسبة.

telegram @yasmeenbook

أمّا المحاولةُ الأخيرةُ فقد كانت أكثر مباشرةً بعد أن وجدتُه يدخّن وعقدتُ معه صفقة: أن أصمت مقابلَ التوقّف عن ذلك السؤال. فاتني أنّ صملوخ سيُكشف أمرُه بسرعة، وذلك ما جرى وبدأ يدخّن أمامَ الجميع، فسقط الاتّفاق المبرم بيننا مثل أعقاب سجائره التي تسقط تحت دعسات حذائه الثقيلة. استسلمتُ لتلقّي تلك الصفعة الجلفة بدلًا من اتّقائها، ثمّ رأيت أنّ الاستسلام حلٌّ من الحلول.

.. عُدت إلى الكراسي الحديديّة اللعينة أمام ممرّ العمليّات، وتركت القبيلةَ خلفي يتناقصون. اتّصلت بصديق لي يعمل في المستشفى، وشرحت له الوضع كاملًا، فسألني عن أسماء الأطبّاء الذين يجرون العمليّة، ولم أكن أعرف أيًّا من أسمائهم. سألني عن شكل طبيب التخدير الذي التقيته، فكان الشيء الوحيد الذي تذكّرته بوضوحٍ وجه (الفاجومي)، الشاعر المصريّ أحمد فؤاد نجم، فألقيتُ بهذا التشبيه إلى صديقي. صمتَ فجأةً، أظنّه شكَّ في قوايَ العقليّة ولم يستسغ هذا التشبيه. لكنّي عجزتُ عن إفادته، فأنهى المكالمة بحكمةٍ وقال: «سأتصرّف».

كنتُ أنتظر اتّصالَه وأسترجعُ وصفَه الساخر للرجال وهم ينتظرون مواليدَهم الأُوَل. يقول إنّه رأى كثيرًا من الرجال يتولّدون خارجَ غرفة التوليد، تتعرّق جباهُهم وتتورّم وجوهُهم ويصابون

telegram @yasmeenbook

بزحيرٍ وشدٍّ في أحشائهم، كأنّهم يدفعون شيئًا مّا إلى الخارج. فسألته وقتَها عمّا إذا كان هو قد مرّ بهذه الحالة؟ فأكّد لي أنّه لم يبدأ بملاحظة الأمر إلّا بعد تجربته مرّات، وأنّه يستطيع أن يتبيّنَ ما إذا كان الرجلُ ينتظر المولودَ الأوّل أو الثاني أو المولودَ ما بعد الخامس، ويعتمد على مقياسٍ وحيدٍ هو عضلاتُ وجوه الأزواج أثناء وجود زوجاتهم في غرف الولادة.

جاء اتّصاله بعد دقائق قليلةٍ يستفسر عن شهر الحمل. فأجبته: في الشهر الثامن، ومازلت أفكّر جدّيًّا في تعليقاته الساخرة على الرجال. لماذا لم يتورّم وجهي وتتشنّج عضلاتُ بطني؟! هناك ألمٌ مختلفٌ كلّيًّا ينهشني، لا تصلني أيّ أخبارٍ من غرفة العمليّات القريبة، لكنّ هناك غرفةَ عمليّات سماويّة تعبرني مشاهد خاطفة منها، ثمّة شيءٌ متعثّرٌ بين الأرض والسماء، عالقٌ في الأفلاك البعيدة. يردّد الفقهاءُ أنّ المواليد في الشهر الثامن يتولّاهم زحل، وهو كوكبٌ مشؤومٌ يُميتُهم في بطون أمّهاتهم، ربّما لهذا السبب يغالبني شعورُ الفقد أكثر من الزحير، عزائي الوحيدُ أنّي سأتمكّن من فتح قبرٍ في الأرض وليسَ في صدري وإقامة عزاءٍ حقيقيٍّ بدلًا من المآتم الوهميّة. سأصطفّ مع الفقهاء هذه المرّة، هذا إن فشل الأطبّاء، لا أريد أن أتعامل معها كقطعة لحمٍ مكانُها حاوية النفايات الطبّيّة.

لقد شبعت أكاذيبَ طيلةَ هذه المدّة من رجال الدين، نزفتُ كثيرًا من الآمال والأموال على علاجاتهم الروحيّة، أخذت

telegram @yasmeenbook

جولة كاملة على المعالجين الروحانيّين في بلاد العرب، من اليمن جنوبًا إلى بلاد الشام مرورًا بالأردن، ومن عُمان إلى المغرب، وفي أوديةٍ وشِعَابٍ مغمورةٍ من جزيرة العرب. تجرّعت أدوية صوفيّة السودان، وشعوذات إباضيّة عُمان، وامتسحت بمياه السلفيّة السنّيّة المختلطة بتُفالهم، وتقلّدتُ حروزَ الشيعة والإسماعيليّة وطلسماتهم. ولم يستطع أحدٌ منهم تحريكَ تلك القوى اللّامرئيّة المتكومة كالحجارة في مجرَى سلالتي.

كانت إحدى تلك المحاولات المخجلة شحنةَ دخان مارلبورو أحمر من نجران إلى الزرقاء في الأردن، عربونًا لعجوزٍ أردنيّةٍ زعمت أنّها ستوصي مَن يأتيها من نجران بنبإٍ يقين، وقد يستغرق ذلك مدّة أسبوعَين. وصلها كرتون المارلبورو المستورد، واتّصلتُ بها وردّت: «وصلت يمّه الله يرضى عليك.. وإن شاء الله كل إشي بيصير مثل ما بدّك.. لكيت عندكو سحر والعلاج مضمون.. بدّك تجي يمّه لعندي ومعك 25 ألف ريال».

كانت تتكلّم ويبدو من صوتها أنّها في خلاءٍ فسيحٍ ولديها ما يكفي من الفراغ لتدخين غابة مارلبورو في اليوم الواحد. ملأني شعورٌ بالتفاهة والبلاهة واحتقرتُ نفسي. تذكّرتُ قبلها عشرات الخرافات التي صدّقتُها وتبعتُها بلا عقل. توقّفتُ عن لوم نفسي، وعقدتُ العزمَ على تدخين سيجارةٍ رديئةٍ صُنعت في جبل علي وليست بجودة المارلبورو الأمريكيّ.

telegram @yasmeenbook

الساعة العاشرة والنصف ليلا، مضت ساعتان ونصف الساعة على دخول زوجتي ومستقبلي غير المكتمل النموّ إلى المستشفى. حينما وصلت إلى قسم الطوارئ كان نبضُ الجنين يتناقصُ تدريجيًّا وقلبي منهكًا مثل سجين. كنتُ أسمعُ وجيفَه الدائم خلفَ جدران هذا الجسد المغلق عليه. إنّه يقضي عقوبتَه لسببٍ أعرفه جيدًا، لقد كذبَ عليَّ هذا القلب كثيرًا، لم أعد أُصدّقه أبدًا، لذلك هو هناك يدقُّ بلا توقّفٍ ولا أحدَ يستطيع إنقاذَه.

في أحيانٍ كثيرةٍ أشعر أنّي محظوظ بعدم المشاركة في إنجاب شخصٍ إلى هذا العالم، وأحيانًا أخرى أرى العالم مكانًا مدهشًا، ولعلّ حِقدي عليه لا يتجاوز أنّه حَرمَني حَقّي في الإنجاب. الحرمان عقوبةٌ قاسية، حرمان أيّ مدخّنٍ من سجائره يُعَدّ اعتداءً على حقوقه. أدخّن هذه السيجارةَ وأرفعُها لأتأمّلها مليًّا. هل يعني أنّ كلّ محاولاتي للإنجاب ليست سوى احتجاجٍ على الحرمان؟!! ربّما...

الحرمان إحدى فواكه الغيب المتساقطة في هذه الحياة. أن يولد

telegram @yasmeenbook

شخصٌ أصمَّ أبكمَ بلا سبب، ثمّ يكبر، وتصبح حوَاسُّه مثل سوقٍ نُزعتْ منها الأصوات، فذلك يعني أنّ السماوات ترسلُ إلى العقل البشريِّ التيّاهِ بمعارفه توبيخاتٍ أو تحدِّيَات.

ذات مرّةٍ رأيتُ رجلًا أعرجَ يقطع الشارعَ من بين السيّارات المسرعة، راقبتُه وكنتُ أودّ لو أركض بدلًا منه، لقد كانت تلك المسافةُ المُلغاة من إحدى قدمَيه تخلقُ ألمًا ومعنًى لحياته في كلّ خطوة. فكّرت في المعنى والألم، فوجدتُ أنّ المعنى ابنُ الألم الشرعيّ وما عداه زيف. ثمّ لم أعد أدري، إلّا أنّي بدأتُ أتضامن مع ذلك الكائن الضبابيّ المُصاب بالإحباط، ذاك الذي يُحبط كلّ محاولة إنجابٍ أُقدِمُ عليها. وكأنّه يوزّع علينا ما حُرم منه هو أيضًا، يريد أن يرى لذَّةَ النقصان التي لم يذُقْها، يتوق إلى ضجيج ذلك النقص الهادر بالقُبح والجمال وهو في ركوده المتأبّد المكتمل.

رميتُ بقيّة السيجارة اللّا مكتملة على الرصيف، وبجانبي غُرفٌ خارجيّةٌ تهدرُ من جوفها مولّداتُ طاقةٍ وتزفِر أنفاسًا ملتهبةً مع قيظ أوغست الجحيميّ. شعرت برائحة التبغ تلتصقُ بوجهي، فاتّجهتُ إلى مسجد المستشفى القريب. أزحتُ نظّارتي، ورفعتُ شماغي، وملأتُ يديَّ بالماء ونضحتُ وجهي. ولمّا غمرتُ وجهي بالماء ثانية، أحسستُ بوجود أحدٍ يشاركني المكان، فاستدرت. كان عاملَ نظافةٍ يلبس أفرهولًا أخضر اللون يوجّه نظره إليّ. له لحيةٌ شعثاء ويلوي شماغًا مقلوبًا على رأسه. فهممتُ بإعطائه بعض الريالات. وعندما اقتربتُ منه، كنت أراقب عينيه شبه الميتتين،

telegram @yasmeenbook

تتدحرج سوادتاهُما في هوة بلا قرار. فانزلق منّي سؤالٌ قبل أن تصل الريالات إلى يديه: «كم بزورة موجود يا صديق؟». فانهمرت غيمتان ممطرتان في عينيه، رأيت فيهما مهرجانًا يبدأ وجمهورًا يصفّق، فأجابني بابتسامةٍ مليئةٍ بالحنين أنّ لديه ثلاثةَ أبناء، بنتًا وصبيَّين، وأخرجَ جوّالَه من جَيبه الخلفيّ ومدّه نحوي. كان يضعهم في خلفيّة الشاشة، تتزاحم وجوهُهم، ويحاول كلٌّ منهم أخذ الحصّة الأكبر من الصورة، ويتنافسون بضحكاتٍ طازجة. فأعدتُ الريالات إلى جَيبي أريد أن أخرج عشرات. لكنّ جوّالي انتفض، وشاهدتُ رقمَ صديقي. فخرجتُ مسرعًا وتركتُ العاملَ خلفي وسؤالُه معلّقٌ في لحظة زمن محايدة: «أنت موجود ولد؟!!»

ألووو.. هلا..: الحالة معقّدةٌ قليلًا، الأمّ تعرّضتْ لنزيفٍ بسيطٍ وتمكّنُوا من السيطرة عليه، وهي مستقرّةٌ ولا خوف عليها. والبنتُ رئتاها غير مكتملتَين ونسبةُ نجاتها ضعيفةٌ جدًّا وقد لا تتجاوز الأربع والعشرين ساعةً القادمة..

هل قال «البنت»؟!! بودّي لو أعدت الاتّصال به لأتحقّق.

لم أكن أعلمُ جنسَ الجنين، بجهلٍ مقصودٍ ورفضٍ قاطعٍ منذ أشهر الحمل الأولى. كنتُ أقاوم فضولي الشَّرِهَ إلى معرفة جنس الجنين، فبمجرّد معرفة ذلك ستدفع بنَا العيادةُ إلى السوق، ثمّ نؤثّث غرفةً بألوانٍ تناسبُ جنسَه، ونكدّس الكسوةَ في أدراج هذه الغرفة، ويبدأ خيالي في تبنّي هذَا المخلوق الجميل والتعوّد عليه. كلّ ذلك قد

telegram @yasmeenbook

يجعلني أركبُ ضوءًا كاذبًا ينقطع في ظلمةٍ أبديّة، ثمّ تسوء علاقتي به مع الفراغ الوجوديّ الذي أعيشه، وتكون المصالحة مكلفةً إلى حدّ لا أطيقه.

أعرفُ جيّدًا طعمَ الفشل المعدنيّ الذي يملأ حنجرتي بعد كلّ تجربةٍ لغرس ملامحي في مخلوقٍ يرفض المجيء. تعوّدت على تربية الخسارات الفادحة في كلّ محاولاتي السابقة، أعيد تأهيلَها كما يفعل أيّ بلدٍ يعيد تأهيل جرحى عائدين من الحرب.

.. أعدتُ النظرَ حولي لأرَى عاملَ النظافة، لكنّه اختفَى في ركنٍ آخرَ من هذَا المستشفى. مشيتُ إلى البوّابة وانعطفتُ عندَ زوايا كثيرة، حتّى عدتُ إلى مكاني أمامَ غرفة العمليات.

من المحزن أن يكون هذا الممرُّ الطبيُّ الباردُ الكئيبُ بوّابةَ عبورِ كثيرٍ من الأطفال إلى هذا العالم. لقد كان دخولي إلى هذا العالم في حجرة طينٍ دافئة، يدخل إليها عمودٌ من النور في ساعات الصباح الأولى من باشورة صغيرةٍ أظنّها أحدَ أخطاء البنّائين. كنت في طفولتي ألعبُ بعمود النور المنكسر في تلك الحجرة، أحاولُ الإمساك بالذرّات التي تسبح في أنبوب الضوء، وأقطعُ سيولته بيدي وأحيانًا برأسي. ذلك الوقت الصباحيّ الذي ترتّب فيه أمّي البيت الصغير، هو وقت انتمائي إلى حياة تتعثّر في ترتيب نفسها.

في ذلك الزمن الذي خُلِقتُ فيه لم يكن اليومُ والتاريخ شيئًا يجب معرفته، لذا أنسى الاحتفالَ دائمًا بيوم ميلادي المزيّف من كلّ

telegram @yasmeenbook

عام، تلك الذكرى المفقودة من ذاكرة الآباء والأمّهات؛ حتّى أصبح النسيانُ احتجاجًا سنويًّا أؤدّيه بإخلاص.

أترك لحيتي تزداد طولًا وخشونة، فتنبت شُعَيراتٌ صغيرةٌ غيرُ مرئيّةٍ على أطراف فمي، وتشقّ وجهي ابتسامةٌ كمشرطِ جرّاحٍ ارتكبَ خطأً طبيًّا. لم يكن ذلك موقفًا مضادًّا للحياة بقدر ما كان تعبيرًا مجهولًا عن طقوسٍ أقوم بها في أعياد ميلادي، وليست ترمز إلى شيء أفهمه.

تغيظني ذاكرةُ أمّي التي نسيت يومَ ميلادي إلى الأبد، أحاول تحريض ذاكرتها في كلّ عامٍ لتتذكّر يوم ميلادي، فتخبرني أنّني ولدتُ بعد «محمد بن هادي» بخمسين يومًا، فأشعر أنّي أقلّ أهمّيّة من «محمد بن هادي»؛ لذلك لم أسأله قطّ.

تستدرك أمّي دائمًا أنّ يومَ ميلادي صادفَ أوبة أبي من سفرٍ بعيدٍ وطويلٍ بحثًا عن الرزق، وكان وجودي حزنًا إضافيًّا منحته إيّاهُ الأقدار ذلك الصباح. ثمّ تختتمُ السيناريو ذاتَه وهي تعدّد الأمراض التي نهشتْني في صغري حتّى لفظني الموتُ من فمه مرّاتٍ كثيرة، فكُنت كما تخبرني أمّي بعفويّتها «عِياف الموت». لا أذكُرُ من تلك الأمراض سوى اختناقٍ ليليٍّ رافقَتي حتّى نهاية طفولتي. كانت أنفاسي تنقطعُ في عزّ نومي، فأقفزُ من فِراشي وأركضُ في اللّاهواء، وأشهق بصوتٍ بين نهيق الحمير وصهيل الخيل، فيلاحقني إخواني وأبي ويشارك بعض الجيران في تلك المطاردة. أنطلق من مرقدي

telegram @yasmeenbook

في «حوّي» البيت المفتوحة على الأرض الندية والسماء الموشّاة بنجومٍ غارقةٍ في الصمت، أقفزُ من فرضةٍ على شكل مثلّثٍ مقلوبٍ في جدار الطين القصير الذي يسوّر البيت، ويقبضون عليّ في آخر البستان الذي أحترم حدوده فلا أتخطّاها، وينتهي المطافُ بي في طوارئ المستشفى حتّى صباح الغد.

.. عدتُ إلى الكراسي الحديديّة، فوجدت رجلًا خمسينيًّا يلوّح بمسبحته، له بطنٌ مندلقٌ أمامَه وسروالٌ أطول من ثوبه. سألته عمّا إذا أخرجُوا مريضةً من قسم العمليّات، فأجابَ بأنّه لم يرَ أحدًا. أقلقني صوتُ مسبحته وتحرّكاته المتوتّرة، ولكي أوقف تركيزي عن مسبحته ويوقفَ مسبحتَه عن إثارة توتّري، بادرتُه بالكلام: «سلامات..عسى ماخلاف؟» فردّ: «كفيت الخلاف.. زوجتي داخل والله يجيب العلوم الطيّبة». كان واضحًا أنّه يريد وجودَ أحدٍ حوله، كما كنتُ أرغب بشدّةٍ في أن أكون مع أيّ أحد.

كانت نيّتي أن أجيب عاملَ النظافة على سؤاله وأقول له: نعم أصبح لي ابنةٌ الآن. لديّ الآن إجابةٌ ولم أجد مَن يسأل. عندما كنتُ أفتقر إلى الإجابة كانت الأسئلة ترشقني مثل حجارةٍ تنهالُ على رأسِ زانٍ يواجه عقوبةَ الرجم.

تناوبنا على الحديث، وتبادلنا التجاربَ وأسماء العيادات وأطبّاء العقم. كان الرجلُ ينتظرُ مولودَه الأوّلَ بعد زواجَين انتهيَا بالانفصال. وأخذَتْه زوجتُه الثالثة بكلّ بساطة إلى مستشفًى خاصٍّ

telegram @yasmeenbook

بالرياض، فيه مبنًى كاملٌ للمساعدة على الإنجاب. وجدُوا لديه مشكلةً بسيطةً اكتشف الطبُّ لها حلولًا. فقؤُوا خصيتَه بمبضع معقَّم وأخذُوا حيواناته المنويّةَ الحيّة وألصقوهَا برحم زوجته. فنجحت عمليّة الإخصاب من المرّة الأولى.

اسمه حمد الأصدع، ويعمل في الجيش بمدينة شرورة التي تقعُ في قلب الربع الخالي. وينتمي لأسرةٍ من البدو في نجران، وذلك جعلَه شبهَ غائبٍ عن معرفة تقنيات الطبّ في الإخصاب.

هو وزوجتُه يكتُمان هذا الأمرَ بشدّةٍ عن أقاربهم. فالحملُ بهذه الطريقة مَنْقَصَةٌ في رجولة الرجل وأنوثة المرأة، وهم ينظرون إلى طفل الأنابيب كما لو أنه ابنٍ للعيادة وليس لأمّه وأبيه، أو إلى سلالةِ مختبراتٍ لم ينحدر من قبيلته بطنًا عن ظهرٍ ولا ينتمي بالكامل لعائلته. وفي ضمائرهم يعتبرونَ أبناء المختبرات أنصافَ سِفاحٍ لتدخّل الأطبّاء في اختصاصات الإله. أمّا بعض أصحاب العقول المؤامراتيّة، فأكَّدُوا أنّ أطفالَ الأنابيب نُطَفٌ وبويضاتٌ مستَوْرَدَةٌ من الغرب منزوعةُ الغيرة والحميّة.

فيما مضى، كنتُ أتعمّد الإمساكَ بطفل مختبراتٍ لأحد أقاربي، أحاول التعرّف على البُعد اللّاإنسانيّ في هذه الكائنات، أُجري عليه بعضَ الفحوصات الغريبة، فأنظر في قعر عينَيه، أتحسّس عظامَ رقبته بيدي، أصغي بأذن محقّق أصواتٍ عندما يتكلّم، لعلّي أسمع رنّةَ مطرقةٍ شيطانيّةٍ في نظامه الصوتي. فتّشتُ أيضًا في رائحته عن

telegram @yasmeenbook

أحماض الكيمياء وموادّ التعقيم. نقّبتُ في مسامات جلده عن بؤر خلايا مختبريّة. كنت على يقينٍ أنّ الروح التي بداخل ذلك الجسد الصغير لم تُخْبَزْ في فُرن الغيب. ثمّ كَبر طفلُ الأنابيب وتوقّفتُ عن إجراء أبحاثي العبثيّة عليه. وفي ليلةٍ كان الأطفال يُسبّبُون فوضى حول البيت، فخرجتُ لإسكاتهم عن الإزعاج ونهرتُهم بصرخة. بكى طفلٌ صغيرٌ وصمتَ البقيّة، فحدجني طفل الأنابيب بنظرةٍ صارمةٍ فيها الكثير من اللوم، وأخذ يمسحُ دموعَ الطفل الباكي ويغريه بالركوب معه على سيكله. لحظتها، انهارتْ كلُّ معتقداتي الجاهليّة عن أبناء المختبرات وعرفتُ أنّهم أبناء الحياة وأنّ التخليقَ في المختبر وسيلةُ مواصلاتٍ تستقلّها هذه النفس للقدوم إلى وجهتها.

المهمّ أنّ هذا الراكب المُنتظر الذي تخلّفَ عن كلّ المحطّاتِ والمواعيد جاء الآن. وقد يرحلُ في أقلّ من يوم واحد. ستكون أقصرَ زيارةٍ لأطول انتظار. يبدو أنّ حياتي مصابةٌ بلعنة المقاسات. كلّ ما أريده هو أن تحيا مدّةً تسترُ عورةَ الانتظار، لكن لا يمكنني أن أطلب من الله شيئًا كهذا، أشعرُ أنّي أريد دائمًا أن أعتذر منه على ضياع هذه الشُّحنة الإلهيّة كلَّ هذا الزمن.

.. خرج السرير من غرفة العمليّات مصحوبًا بمُقَّنعين يحجزون رؤوسهم بقطعٍ قماشيّةٍ ويلبسون أغطيةً صفراء شفّافةً معقودةً وراء ظهورهم وتتدلّى إلى ركبهم.

telegram @yasmeenbook

وقفنَا أنا وجنديّ الجيش الخمسينيّ، كلانا ينتظر حصّتَه بعد جوع بيولوجيّ إلى هذه اللحظة. كانت زوجته ومولودُها يبدوان في صحّةٍ جيّدة. مشى معهم بعد أن أخذَ رقمي وكرّر أنّه سيتّصل بي قريبًا.

جاءت زوجتي وكائنٌ صغيرٌ لم أتبيّن ملامحَه. سِرتُ بقربِ حضّانة المولودة وأنا أنظر فيها، كانت الأجزاء التي تظهر منها أقلَّ من الأجزاء التي تغطّيها تلك الأجهزة من كلّ صوبٍ وتنطلق منها أصواتٌ متنافرةٌ تثير القلق. دقّ الطبيب كتفي ليقول لي شيئًا، فالتفتُّ إليه وأبلغني أنّ وضعَ المولودة حَرِجٌ وأنّها خُلقتْ بأعضاء غير مكتملة النموّ بنسبةٍ كبيرة، وستنقل إلى عنايةٍ مشدّدة، وأنّ زوجتي بوضعٍ مستقرٍّ وستذهب إلى غرفةٍ عاديّة.

وصلنا إلى مفترق طرُقٍ ستتّجه منه كلُّ واحدةٍ منهما إلى قسمٍ مختلف. احترتُ مع مَن أذهب، وماذا لو أنّ إحداهما ستكون ماضِيًا لمستقبل الأخرى؟ وكلتاهما امتدادي في هذه الحياة!!

وقفتُ حائرًا على الأرضيّة المطّاطيّة، بينما سريرُ الأمّ يتّجه إلى ممرٍّ والابنةُ إلى الممرّ المعاكس. رنّ هاتفي، فالتقطتُه. وكان اسمُ أبي يملأ الشاشة. وضعتُ الجوّال أمام وجهي، ولم أجب. فقد داهمني توجّسٌ مفاجئٌ من الحوار الذي سيدور في هذه المكالمة.

هل أستطيع إخبارَ أبي بأنّي أصبحتُ أبًا؟!! وأنّي سأجدُ من ينسيني المعاركَ التي في الخارج؟!!

telegram @yasmeenbook

كان أبي يسردُ لي مرارًا حكايةَ القبيلة التي تضحك ليلًا. يقولها بالتفاصيل الدقيقة نفسها، وفي التوقيت المسائيّ ذاته، عندما ينفضّ السُّمَّار من إخوتي وأبنائهم وأبقى برفقته وحيدًا. يروي أنّ قبيلتَين متجاورتَين نشبتْ بينهما حرب، وكان يجمعهما موردُ ماءٍ واحدٌ في إحدى البوادي، ليس سوى الريح تفصلُ بين دارة خيامهم ومعاطن إبلهم ونارهم في المساء. وكانت كلّ منهما تُغير على الأخرى، ويترصّد بعضُهم بعضًا دون الماء وفي كلّ مرصد، وقد تغيب الشمس بقتيلٍ ويعلو الندب والعويل في إحدى الجهتَين، أو يغطّيهم الليل بلا قتلى.

وفي هدأة تلك الليالي المخيفة، كانت الريح تأتي من خيام إحدى القبيلتَين بأصوات ضحكات عذبةٍ وتلقي ببعضها على القبيلة الأخرى، فتصيبهم تلك الضحكات بالوجوم واليأس، تأكلهم الحيرةُ ليعرفوا ما الذي يمنح هؤلاء البهجةَ في شدّة الحرب. تكرّر الأمرُ وسمعُوا الضحكات كلّما هبط الليل. وبعد أن تهشّمت عزائمهم وانتهت تلك الحرب بهزيمتهم، أدركوا أنّ تلك الضحكات كان مصدرُها الأطفال.

كان لدى القبيلة التي تضحك ليلًا أطفالٌ يؤنسونَها في حروبها خارجًا، أمّا القبيلة المهزومة فلا أطفالَ لها.

وكم كُنت يا أبي تلك القبيلةَ المهزومةَ المتشرّدة في خرائب الوحدة كلّمَا هبطَ الليل. ذلك، يا أبي، الليلُ الذي يخرجُ منتعلًا

telegram @yasmeenbook

خطايَ المبتورةَ ويتنزّه بها على ناصية العدم. ذلك، يا أبي، الليلُ الذي يجرّ مخاوفي إلى الطرقات النائية، ويستوي على عرش خيباتي كإلهٍ يعذّب مخلوقاته. ذلك، يا أبي، الليلُ الذي يلغي معاهداتي مع طفولتي القصيرة. ذلك اللّيل يا أبي الذي يحوّل جمجمتي مصنعَ مخدّرات، يحتشد أمامه عُمّال الأرق في إضراب عام. ذلك الليل يا أبي الذي يعديني مزقًا تالفة، عالقًا كصرخة تسد حنجرة قتيل، حائرًا كالصمت في الأوقات الوعرة. أطرُق وجهي بإزميل القبيلة، ثم أخرج إلى الضوء منتعلًا خطاي المبتورة..

.. أجبتُ على مكالمة أبي وأعطيتُه تقريرًا رسميًّا. تكلّمتُ معه كلامَ شخصٍ محايدٍ أو موظّفٍ يزوّد ذوي المرضى بمعلوماتٍ عن الحالة. أعتقد أنّه لا يحقّ لي حتّى الآنَ إعلانُ أُبوّتي، قبل أن يكون ذلكَ الطّفل في بيتي ويصدر أصواتًا تضحكني. بغض النظر عن المهمّة الاجتماعيّة الرئيسة التي تقتضي إنجاب طفل حتّى أنتقل من خانة البطالة الذكوريّة إلى رابطة «من خلّف ما مات»، وهي رابطةٌ تعتبر إيجاد خلف في هذا العالم انتصارًا على الموت، وليس لدي الرغبة بأيّ شكل من الأشكال في هزيمة الموت، فكلُّ ما أريده هو وجود طفل يجلب المسرّات الليليّة الصغيرة، إنّه سببٌ أهمّ لديّ من كلّ الأسباب الأخرى، قد يبدو شاعريًّا وسطحيًّا في نظر البعض، لكنّهم لم يجرّبوا الأمرَ بعد خمسة عشر عامًا من الزواج، حيث العودة من العمل أو بعد سهرةٍ مع الأصدقاء إلى شقّةٍ صغيرةٍ يعشّش فيها الهدوء، ويطفو في فراغها الصمت. قد يبدو الأمر موحشًا ومقنعًا

telegram @yasmeenbook

لأعتى ملحدٍ ينكر اللهَ بأن يؤمن أنّه استحقّ الوحدة بجدارة، حتّى إنّ بعضَ من يعبدونه جعلوا له زوجةً وولدًا ليؤنساه في تلك الوحدة

.. عدتُ إلى غرفة العناية المشدّدة بقسم الحضانة. كان يجتمع حولَ ذلك الحوض الزجاجيّ أطبّاء وممرّضاتٌ وحضورٌ مكثّف. وصَلَ طبيبٌ مصريٌّ وعَبرَ بجانبي وهو يزرّرُ كُمَّيْ قميصه. عبر بشكله النموذجيّ وبنظّارةٍ متناسقةٍ مع وجهه، ومجموعٍ ملامحه التي تشبه كتابًا طبّيًّا. خطواتُه الواثقة وهو يدلف إلى باب الحضّانة، وتناولُه البالطو الأبيض بحركةٍ مُدرّبة، كلّ ذلكَ بعث في داخلي أملًا كبيرًا.

وقفتُ أراقبُهم خلفَ زجاجٍ شفّاف. من تقدّمِه وتأخّرِ الآخرين، فهمتُ أنّه الذي سيقود هذه المهمّة الانتحاريّة. إنّه يعمل بميكانيكيّةٍ ولا يبدو أنّ للأمر أيَّ حساباتٍ عاطفيّةٍ لديه. كان يُعطي أوامرَ مختصرَةً لَمن حولَه، يجمعُ النتائجَ ليقرّر إحصائيًّا كم تملك هذه الطفلة نصيبًا من الحياة. هو لا يعرفُ كم من المسافات والأزمان اقتطعتُ من عمري حتّى تلتحقَ بهذا العالم وتصبحَ واقعةً مسجّلةً في وثائقَ تثبتُ وجودَها. خرج بعد وقتٍ دام ثلاثة أرباع الساعة. ورأيتُ الممرّضة تشير له نحوي من خلف الزجاج الشفّاف. من أخلاق هذه المهنة الشفافيّةُ الجارحة، قد يبدو مذهبُ العلم أكثرَ يُبوسةً وتعصّبًا من جماعة داعش في إخلاصها لمعتقداتها.

أخبرني أنّ رئتَي المولودة غير قادرتَين على الصمود طويلًا، ليسَ أكثر من 24 ساعة قادمة. هكذا حرمّ عليها الحياةَ بفتوى علميّةٍ

telegram @yasmeenbook

غير قابلةٍ للدحض، ولا منقذَ لها سوى حقنةٍ لا تتوفّر سوى في مستشفيات الرياض الكبرى، هذه الحقنة قد تفجّر الحياةَ أو الموتَ في رئتيها. وأعطاني اسمَ هذه الحقنة التي ترقُد في إحدى ثلّاجات الأدوية العالية البرودة.

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

الساعة الثانية عشرة إلّا ربعًا ليلا، اتّجهتُ مباشرةً إلى مواقف السيّارات. أحتاج إلى شيءٍ واحدٍ فقط، هو الوصول إلى الرياض. إنّ هذه العاصمة تجعلنا دائمًا في حاجة إلى الوصول إليها، لم تفكّر أن تصل إلينا مرّةً واحدة. يستغرق الذهابُ بالسيّارة ثماني ساعاتٍ في برارٍ طويلةٍ وظلامٍ دامس، والمكوث إلى رحلة الطائرة الصباحيّة قد يؤخّرني ساعتَين كاملتين. وما كان لي أن أنتظرَ دون فعل أيّ شيء، فاتّجهتُ إلى سيّارتي بالمواقف، وجعلت نجران خلفي

تجاوزتُ آخرَ بقعةِ ضوءٍ في مركز تفتيشٍ صغيرٍ على حدود المدينة. كانت عتمةٌ لانهائيّةٌ تبتلعني إلى جوفها، أسيرُ بسرعةٍ عالية، الساعات تمضي وكأنّي في المكان نفسه، لا أرى إلّا في حدود ما تكشفه أضواءُ السيّارة أمامي، والظلامُ يحيط بكلّ الجوانب الأخرى. أنزلقُ كزورقٍ صغيرٍ في عُبابِ محيطٍ مظلم.

اتّصلتُ بزوجتي، ففهمتُ من صوتها أنّها تُفيق للتوّ من المخدّر، وقد جاءت أمُّها لتكون معها. سألتني أين أنا بصوتٍ منهكٍ يطلب إجابةً شَفِقة، قلت لها إنّ الأمور بخيرٍ وابنتك بخير، ولكنْ لا بدّ

telegram @yasmeenbook

أن تأخذ حقنةً ضروريّة، فذهبتُ لإحضارها. أعرف أنّ الإجابة لن تنجح في طمأنتها؛ إنّها الأمّ وشعورها لا يكذب، قالت لي كلمة واحدة تطيّرتُ منها: «عوّد..!!». ثمّ عادت لتنامَ بالمخدّر الذي يقطر في أوردتها. أخذتْني الكلمةُ إلى خانة الانهزام والاستسلام في معركةٍ تزداد فيها جثث الاحتمالات، وتذكّرتُ أنّ حدسَها يصدقُ كلَّ مرّةٍ بعد عمليّات الحقن المجهريّ، فلم تكن تصرّح أو تقصدُ دائمًا، بل كانت تقول كلمةً عفويّةً مشحونةً بالتنبّؤ.

في المرّة الأولى التي قرّرنَا فيها العلاج بالحقن المجهريّ، كنّا نجهل الإجراءات الطبّيّةَ ونجهل الجانبَ النفسيَّ لهذه التجربة أكثرَ. حجزنَا موعدًا لدى استشاريٍّ سعوديٍّ اسمُه يتردّد في الإنترنت، وله شهرةٌ في مجاله. كتبُوا عنه أنّه الأكثر نجاحًا في إنتاج أطفال الأنابيب، ويتفوّق على الأطبّاء الآخرين بإحراز توائمَ أكثرَ في ذلك الموسم الطبّيّ. إنتاج هذه الأجنّة أصبحَ سوقًا يحتكرها قلّةٌ من الأطبّاء، وكلُّ طبيبٍ منهم لديه شعوذتُه ولمساتُه الخاصّة التي يتفرّد بها عن البقيّة.

دخلنَا مستشفًى مصمّمًا بلمسةٍ فندقيّة، وصعدنا إلى عيادته الصغيرة بخلفيّةٍ زجاجيّةٍ تطلّ على شارعٍ تتزاحم فيه الأبراج. بعد جمع الفحوصات والأشعّة الأوليّة، حمَلَ ورقةً يضعها أمامَه فيها رسوماتٌ واضحةٌ للرحِم، وشرحَ لنَا بأقلّ عددٍ من الكلمات مراحلَ مشروع استنبات الأجنّة. سألته سؤالًا واحدًا، فأجاب بتَعالٍ وغضب. خرجنا إلى الاستقبال، وفهمنا أنّ مهمّتَنا أن ندفع لا

telegram @yasmeenbook

أن نتكلّم، وبدأ ماراثون الإبر اليوميّة في التوقيت نفسه، والعلاجات المكثّفة. امتلأ جسدُ زوجتي بالثقوب، وصارت أوردتُها مسابحَ للأدوية. إنّهم يتعاملون مع الأمر بضراوةٍ وعدائيّةٍ حتّى يحقّقَ لهم النجاح. مضى حوالي أسبوعَين ألعب فيهما دورَ مرافق المريض فحسْب، كنتُ أعلم أنّهم سيحلبون سائلي المنويّ، ولكن لا أعلم كيف سيكون ذلك ولم أفكّر بالأمر.

قبل العمليّة بيوم، وصلتْني رسالةٌ تكرّرت قبل ذلك مرّتَين: مدرسةٌ بمكّة المكرّمةَ تبلغني بأنّ ابني عبد الرحمن متغيّبٌ هذا اليوم. ذلك الخطأ الذي ارتكبه موظّفٌ مهملٌ في إدخال رقمي بدلًا من رقم الأب الحقيقيّ لعبد الرحمن، منحني تجربةً مجّانيّة للأبوّة، واعتبرتُ ورودَ الرسالة علامةَ قبولٍ من قوّةٍ مجهولة.

نهضنا باكرًا لموعد العمليّة بعد ليلةٍ مؤرّقةٍ بإحدى الشقق المفروشة، كنّا نتقلّبُ في ظلام الغرفة مثل قططٍ في جوف كيسٍ لا تعلم في أيّ مكانٍ سيقذف بها. كنّا ننتصرُ لاحتمالٍ واحدٍ فقط، أنّنا سنعود ومعنَا بويضةٌ ملقّحة.

من بعد مسحة نومٍ خفيفة، خرجنا في الصباح الباكر إلى موعد العمليّة، لم نتبادل أكثرَ من الكلمات الضروريّة عن الأوراق المطلوبة وبعض الإجراءات،

أدخلُوا زوجتي إلى غرفة العمليّات، وأعطوني كيسًا فيه علبةٌ صغيرة. كنّا ثلاثةً في الغرفة لا أحدَ ينظر إلى كيس الآخر ولا إلى

telegram @yasmeenbook

وجهه. وصلت جريدةُ الرياض للتوّ إلى غرفة الانتظار، قلّبتُها دون قراءة أيّ شيء. ثمّ وصلَ الطبيبُ بربطةٍ على رأسه وبملامحه النَّجدمكسيكية. واستدعوا الأوّلَ فنهضَ يحمل كيسَه وقادُوه إلى مكان قريب. أمّا الآخرُ الذي بقي فلم يكن لديه كيسٌ مثلنا. سألتُه عمّا إذا كان قد أعطاهم العيِّنَة، فردَّ بوجهه الشاحب المريض بأنّه لا يحتاج إلى إعطائهم أيَّ عينة، لأنّ لديه سائلًا منويًّا مجمّدًا منذ ستّة أشهر. فجعتني تلك المعلومة التي لم أعرفها من قبل، قال إنّه مريضٌ بالسرطان ويتعالج بالكيماويّ واضطرّ إلى تخزين رصيدٍ كافٍ من حيواناته المنويّة قبل أن تتعرّض للتخريب الكيماويّ. أعطاني تفاصيلَ عن الأمر وأنّ بإمكاني فعلَ ذلك مقابلَ مبلغٍ ماليّ، حتّى أستفيدَ منها لاحقًا إذا فشلت هذه المحاولة. فتخيّلتُ بنكَ السائل المنويّ بالداخل، والأبخرةُ الباردة تتسرّب من شقوقه، ولم أستحسن فكرتَه. فواصلتُ تقليبَ صفحات الجريدة..

جاء نداءٌ برقمي، وخرجت مع الممرّضة إلى غرفةٍ قريبة. فتحتها، فإذا بها غرفةٌ ألصقَ على كلّ جوانبها ورقُ حائطٍ رخيصٌ، كأنّها غرف الموتيلات في الأفلام الأمريكيّة. طلبتْ منّي أن أفتحَ نافذةً صغيرةً وأضعَ العيّنة فيها. وبعدها يمكنني الاغتسال في حمّام الغرفة. كُنت قد نظّفتُ أسناني فحسْب، ولم يدخل جوفي طعامٌ أو شراب. وبدأت أحاولُ إنجازَ مهمّةِ ممارسة الجنس مع علبةِ مختبراتٍ بلاستيكيّةٍ بغطاءٍ أحمر. لا أعلمُ كيف يكون هذا الاستمناءُ الطبّيّ، ولا كم من الوقت يُسمَح به لي كي أنجِزَ الأمر. مضت دقيقتان وأنا

telegram @yasmeenbook

أنظرُ إلى العلبة وأريدها أن تتحوّل إلى امرأة، فتحوّلت كلُّ النساء في ذاكرتي إلى عُلبٍ بلاستيكيّةٍ بأغطيةٍ حمراء.

دفقتُ مائي في تلك العلبة ووضعتُها في مكانها. ثمّ وقفتُ عاريًا في غرفة نومٍ غريبة، بعد أن خذلتْني غرفةُ نومي سنواتٍ طويلة. فتحتُ دُشَّ الحمّام بقوّةٍ ودخلتُ تحت الماء فشعرتُ به يقع على جلدي كالدبابيس. كان جسدي حيوانيًّا كثيفًا في تلك اللحظة. سكبتُ شامبو بكثرة، وتخلّصت منه سريعًا. خرجتُ أُنشّفُ جسدي بعشوائيّة، وكبدي تمارسُ اعتراضًا شديدًا في جوفي، تضخّ فيَّ عصارةً صفراء مرّةً طفحَ قليلٌ منها إلى فمي. عُدت إلى مكاني، وانتظرتُ عشرَ دقائق حتّى أبلغوني أنّ العيِّنَة نجحت في استخلاص حيواناتٍ منويّةً ناجحة. لم أفكّر في زوجتي بالداخل وأيّ تجربةٍ تخوضها، على الأقلّ هي توضَع تحت التخدير الكامل حتّى ينتهي الأمر. كان المكان باردًا بالمكيّفاتِ المركزيّة، فخرجتُ من المبنى كاملًا. وجدتُ الشارع الإسفلتيَّ تصهره شمسُ الرياض الحارقة عند ساعات الصباح الأولى. كنت أتنقّل في طبقاتٍ جهنّميّة من الزمهرير في الداخل إلى الجحيم في الخارج، وتطفحُ في داخلي طبقةٌ موحلةٌ مليئةٌ بالأوساخ.

دخلتُ إلى زوجتي وهي تفيق من المخدّر. فأخبرتني أنّها تحلم بأرنبٍ يعترض طريقي في الظلام، وسيّارتي تتقلّب بلا توقّف. تكرّرَ الحلمُ بهذا الأرنب ثلاث مرّاتٍ قبل أن تخرج نتيجةُ فشل الحمل. كان يعترض طريقَ أحدنا في كلّ حلم. وعُرضةُ الأرنب

telegram @yasmeenbook

فألٌ سيّئٌ وطالعُ نحسٍ في معتقداتنا الخرافيّة. الأرنب في الظلام دعوةٌ واضحة إلى الضياع. لقد كان أجدادُنا الجوعى يتّبعون أرنب الظلام ليشبعوا جوعَهم، فتتيه بهم بعيدًا وتضلّهم عن طريق العودة. وذلك ما جرى لنا، بقينَا نتّبع الأرنبَ في الظلام، فلم نصطدْه ونشبع أرواحنا الجوعى، ولا نحن الذين نعرف طريقًا للعودة.

بعض طرقات هذه الحياة يسقط فيها حقّنَا في الرجوع بعد أوّل خطوةٍ نخطوها، تزجّ بنا في مسار اللّاعودة، وعادةً ما تكون طرقاتُ اللّاعودة طويلةً ونائية، لأنّ كلَّ من سلكوها قبلنا اختفوا في لا نهاياتها الغامضة..

telegram @yasmeenbook

الساعة الرابعة فجرًا. بدأ اللّيلُ في الإدبار، وأصبحت الظلمةُ خلفي، وهناك في البعيد ضوءٌ مُرهَقٌ يومض على الطريق. أفقت من اجترار تلك الذكريات وأحماضُ الجوع الحارقةُ تصعد إلى حلقي. إنّه مركزُ وادي الدواسر يقعُ في منتصف المسافة بين نجران والرياض. كان الوقتُ قبل أذان الفجر بقليل، موعد أمّي لصلاة الشفع والوتر. تذكّرتُ مطلعَ قُنوت الوتر الذي لم أصلِّه منذ عشرات الأعوام: «اللهمّ إنّك ترى ولا تُرى، وأنتَ بالمنظر الأعلى، وإليك رفعت الأبصار ونقلت الأقدام ..».

قرّرتُ الاتّصال بأمّي كي لا تفاجئني باتّصالٍ وتعرف أنّي على سَفَر. صبَّحْتُ عليها بالخير وقلتُ لها إنّي ذاهب إلى المستشفى للاطمئنان على وضعها. كُنت قد كذبت عليها وأخبرتُها أنّ الوضع على ما يرام حتّى تستطيع النوم. قالت لي: «صوتك بعيد ياولدي!!». ضحكتُ، وقلت: «يتغيا لش» ربّما لأنّ الكائنات هادئةٌ في هذا الوقت يتهيّأ لكِ ذلك. فقبلتْ على مَضَض وابتهلتْ تدعو لي ولزوجتي وبنتي. لم تقل لي طوالَ هذه السنوات أيّ كلمةٍ

telegram @yasmeenbook

مباشرةٍ عن الأمر. كانت تكتفي بالنظر إليَّ وأرى في عينَيها كلَّ شيءٍ تريدُ قوله. كنت أقرؤها بدقّةٍ عاليةٍ أو كانت هي ترسلها بوضوح، أراها تقول: «تزوّج..تزوّج..أنت تهدر عمرك.. نحن النساء نقبل القسمة على واحد». لم أستطع من جهتي أن أقول لها إنّ الزواج في هذا الزمن المشوَّه يجعل الشخصَ في حربٍ يوميّةٍ على بقايا حرّيّاته الصغيرة، فماذا سيكون الحال في زواجَين؟ ستكون بالتأكيد مقايضةً بحياةٍ كاملةٍ مقابلَ الإنجاب، وعندما يخسر الإنسان نفسَه قد يحصل في المقابل على أمنيّاته ورغباته لكنّه لن يكون هو ذاته موجودًا في انتظارها. أحيانًا تضطرّنا الحياة إلى أن نختار بين خسارتَين، وإلى الآن أتمسّك بخسارةٍ واحدةٍ هي الأقلّ إغراءً بين الخسارتَين

أغلقت الخطَّ على أدعية أمّي ونجمةٌ فسفوريّةٌ في المشرق تومض بين عينيّ، أعادني ذلك الوميض إلى خرزة جارتنا «خامسة البيّاعة» التي كانت تأتي لتشربَ القهوة مع أمّي في فناجين مبخرة، وتكون أمّي قد أعدّت سجّادةَ صلاةٍ قديمةً مطويّةً طيّاتٍ كثيرةً وبداخلها قطع الضّرْب. تتناول خامسة سجّادةَ الصلاة فتثنيها وتربعها بينها وبين أمّي فيما هي غارقةٌ في الحديث. ثمّ تملأ راحةَ يدها بكِسَر فناجين القهوة ونوى التمر مجفوّة على ظهرها، ترصّصها برهافةٍ ونظراتٍ تنفذ من عينَيها إلى عوالم أخرى، وتمنح النظرة الأخيرة الأكثر نفاذًا إلى خرزة زرقاء مشعّةٍ حصلت عليها في رحلة إلى النجف قبل أربعين عامًا. منذ حصولها عليها وهي تتّصل بقوًى كاشفة. تتحسّس الخرزة والقطعَ الأخرى بيدها الأخرى وتتثبّت

telegram @yasmeenbook

من أنّها أخذت مواضعها. ثمّ تضرب بها وجهَ الغيب، تقلبها من يدها بحركةٍ لا يمكن الإمساك بها فتتساقَط على السجادة الخضراء متناثرةً بعضُها منفردةٌ نادّة وأخرى متراكبة. تحبس خامسة أنفاسَ من حولها وهي تتأمّل القطعَ المتناثرة. ثمّ تنظر إلى جهةٍ مجهولةٍ لا يمكن التكهّن بها، حينها تبدأ في الكشف عن تلك العقد في حياة كلّ بيت. لها لغةٌ مدرّبةٌ تحوم حولَ الأسرار التي نظنّ أنّنا نخفيها، تحوم حولها فحسْب ولا تقع عليها مباشرة.

التقيتُها في عصر أحد الأيّام تجلس هي وأمّي وحدهما. كانت تهمّ بطيّ سجّادتها وضربها. فتجرّأتُ، وطلبتُ منها أن تُعيدَه من أجلي. فردّت سجّادتَها، وقلبت ضربها، وتأمّلتْه، وتكلّمت بأشياء تافهة. كرّرتْ مرّاتٍ أنّي تلقّيتُ مبلغًا ماليًّا دسمًا، ولم يكن هذا ما تجرّأتُ على طلبها من أجله. كنت أريد الاستمتاعَ بطريقتها في النظر وانفعالاتها وتعليقاتها المفتوحة على التأويل، لكنّي أُحبِطْتُ جدًّا بأدائها.

طوت سجّادَتها، وتوجّهتْ تسأل أمّي عن إحدى خالاتي. ثمّ انتقلت بالحديث إلى جارةٍ لخالتي، وقالت إنّها التقتها في زواجٍ قبل أسابيع. رمقتني لتفحصَ انتباهي إلى حديثها. ثمّ شربتْ من فنجان قهوتها المبخَّر بالدخون العُمانيّ واللُّبان المُسقّى، وأكملت حديثها نحو أمّي. قالت إنّها التقتْ معها بابنتها المطلّقة، كانت تصف جمالَ المطلّقة وعذوبتَها بحماسٍ فتجُرّ إصبعَها السبّابةَ من تحت عَينها إلى خدّها وتقول: «يجفل بها في الخِلّ». تردّد صدى الكلمة في أقصى

telegram @yasmeenbook

أعماقي، مَن هذه التي جمالها يعادل وجودًا قائمًا بذاته؟ هذه التي يمكن الجفول بها في الخلوات والاكتفاء بها دون العالم. حفظتُ اسمَها وقبيلتَها وعائلتَها. ثمّ استأذنتُ أمّي وجارتَها وقمت. رأيت في التفاتة المشدوه علامات رضًا على وجهَيهِما، لقد أدركتَا أنّ قلبي أصيبَ بسهمها. يبدو أنّ هذه العجوز الداهية قد تنبّأت بما في قلب أمّي واستهدفته بطريقةٍ أخرى غير الضرب..

.. تجاوزتُ المركزَ وعدتُ أغطسُ في الظلام. مضت ساعة أخرى، وليس معي في هذه الطريق سوى شاحناتٍ ينتهك صوتُها طمأنينةَ الفجر. بدأ يومٌ جديدٌ يتمزّق في الأفق أحمرَ تمامًا كتلك المولودة التي تركتُها خلفي تصارعُ من أجل الحياة. لن تكون حياتي بعد هذا اليوم كما كانت قبله. هكذَا يحدثُ التحوّل في الكائنات عندمَا تكون في أضعف حالاتها. إنّ بذرةَ القمح لا ينبتُ برعمُها سوى بعد أن تتعفّن وتسمحَ لما في جوفها بالانطلاق، وأنا هذا اليوم أشدّ هشاشةً من حبّة قمحٍ منتفخةٍ بالماء في طينة حقلٍ رطب.

كانت زوجتي قد حملتْ وأجهضت بعد شهرين من زواجنا. لم أهتمّ حينَها، واعتبرتُه حدثًا عاديًّا عَبَرَ حياتي كما يمرّ أمامي شخصٌ بلا ملامح. كان يذكّرني بشيءٍ واحدٍ فقط: أنّي خضتُ تحدّيًا فحوليًّا مع أحد أبناء قبيلتي وصديقي. كان موعد زواجَينا في أيّامٍ متقاربة، وقرّرنا إمضاءَ شهر العسل في دُبَي. وهناك لم نكن نلتقي كثيرًا، وإذا التقينا نكون مبلّلَين بالماء. جلسنَا في بار الخريف عند ركنٍ من الفندق الفخم يطلُّ على الخليج. هناك تحدّيتُه مَن ستحبل زوجتُه

telegram @yasmeenbook

أولًا. وعمليًّا، كسبتُ التحدّي. فقد حملت زوجتي أولًا وأجهضت بعد أشهر، وهو الآن لديه أبناء أظنّ أنّ أكبرهم يعرف ما يحدث في العالم أكثر منّي.

عَبَرَ كلُّ هذا الزمن مثلَ قطارٍ فائق السرعة. كانت السنةُ تمضي تلوَ الأخرى، أصافحُ فيها أيّامي واحدًا تلو آخر كرجلٍ يقدّم واجبَ العزاء لجاره. كنتُ أصادف فيها أحلامي المؤجَّلة كما ألتقي بزميل سابقٍ بباب الصيدليّة، أُلوّح فيها بطفولتي القصيرة لكلّ السنوات التي غادرتني ولم تصل إلى وجهتها. كنّا نستمع إلى رشقات الرصاص وقتَ الظهيرة ونستطيعُ أن نحدّد في أيّ بيتٍ من بيوت القبيلة يستقبلون هذا المولود، وتؤدّي زوجتي فروضَها الاجتماعيّةَ مع كلّ امرأةٍ تلدُ طفلًا، لعلّه يأتي يومٌ تنطلقُ فيه الأعيرة الناريّة من عندنا، وتأتي النسوةُ يؤدّينَ فروضهنّ في هذا البيت، وتعجّ في أرجائه رائحةُ بخور المُرّ وتتكاثر الأوراق النقديّة من فئة الخمسين التي تخبّئها النساء وسط طبخةِ بُنّ أخضر. صحيحٌ أنّ إطلاق النار يحتكره المولودُ الذكر، لكنّي مستعدٌّ لكسر هذه الأعراف الخطيرة والاحتفال بهذه الابنة.

.. رنّ جوّالي والشمسُ تباشر عملَها بلا مقدّمات، ينبسط ضوؤها أمامي على الرمال والإسفلت. رفعتُ الجوّالَ، فتحوّلت يدي إلى جزءٍ خارج النظام العصبيّ عندما رأيتُ رقم المستشفى. أجبتُ بصوتٍ خفيضٍ كمَن دعَس على لُغم. قال لي مباشرة: «إذا لم تكن قد سافرت فارجع». فهمتُ أنّ هذا يعني أحدَ أمرَين، إمّا أنّها

telegram @yasmeenbook

ماتت أو أنّ رئتيها قبلتا صفقةَ الحياة. فسألته: «ماذا يعني؟» فأجاب بأنّهم أجرَوا اختبارًا للدم ولا يمكنها أخذُ الحقنة التي في الرياض حتّى إن توفّرتْ.

ماذا يعني هذا؟ إنّه يعني أنّ خيارَ الحياة والموت تقلّصَ من قبضة الدنيويّ لصالح السماويّ. تبدو حياتُنا ساحةَ نزالٍ بين هذَين العالَمَين السفليّ والعلويّ. أتخيّلُهما شخصَين مقامرَين على طاولةٍ في مكانٍ محايدٍ بين هذَين العالمين، يشربان البيرة ويتراهنان على كائنات هذا الكوكب، ولا أعرف بيد مَن منهما بطاقةُ هذا الكائن الصغير. يكفيني أن يكون في لعبتهما معاييرُ أخلاقيّةٌ أقلّ ممّا يمتلكه كازينو مكسيكيّ، ليشفقا عليّ في هذا الموقف.

أخبرتُه بأنّي في منتصف الطريق وكرّرَ عليَّ بنبرةٍ جنائزية: «ارجع..ارجع..سنرسل طلبًا للإخلاء الطبيّ». كنت وقتَها قد تجاوزتُ مدينة السليّل بحوالي ساعة. فخفّضتُ سرعةَ سيّارتي العالية وتوقّفت بجانب الطريق. نزلتُ أتمطّط قدميّ وأحرّكهما. كانت سيّارةٌ وحيدةٌ تأتي من الاتّجاه نفسه، فأراها بعيدةً وصغيرةً يتعاكس بريقُ الشمس على سطحها المعدنيّ وسطَ غلالةٍ من السراب. قبل أن أركب سيّارتي، توقّفت عندي سيّارة فورد كراون فيكتوريا مليئةٌ بالطعوج في جانبها. أنزلَ سائقُها زجاجَ السيّارة المظلّل بملصقاتٍ سوداء، وقال بصوتٍ أجشّ: «السلام عليكم.. مساعدة يالأخو؟». شكرتُه، فمشى بسرعةٍ كأنْ لم يقف. لم أركب سيّارتي حينها، مازال وجهُه يكبر أمامي بكلّ ذلك السواد الساطع،

telegram @yasmeenbook

بأنفٍ مخلصٍ للجين الأفريقيّ العنيد، إنّه يشبه تمامًا أنفَ تلك العجوز السوداء التي رأيتُها من قبل..

كانت من الليالي التي لا تغادر ذاكرتي، مزيجٌ غريبٌ بين الطقوس الأفريقيّة وأساطير البدو، اقتادني إليها أحدُ زملائي في العمل، زميل من النوع الذي نشرب الشاهي وندخّن معًا خلفَ مبنى الإدارة، كان يعترض كثيرًا على الاستسلام لحالة اللّاأسرة التي أعيشها، رغم أنّه أكثر شخصٍ لا يعترض على تقسيم العمل والمكافآت. نصحَني بعجوزٍ سمراءَ تعيشُ بالقرب منهم، تأتي إليها نساءٌ لم يرزقنَ بالأبناء، فتؤدّي دورَها وقدراتها في «الزّار» بإخراج الفرخ من المرأة العاقر وتستقبله بدلًا منها.

تقول إنّ جسدَها المهجورَ والأجدب والمعتم هو ملجأ لفراخ الجنّ، وإنّها تدير في أملاكها اللّامرئيّة روضةً لأطفال الجنّ المشاغبين، وتذكُر أنّ عمليّة انتقالِ أيّ فرخٍ من شخصٍ آخر إليها تتعبها وتهزّ روحَها هزًّا، وتتطلّبُ مقابلًا ماليًّا مجزيًا.

أطعتُه شبهَ مكرهٍ لإلحاحه ولقناعاتي الوثنيّة التي تستيقظ أحيانًا. تدبَّرَ أمرَ الموعد بعد مداولاتٍ وشفاعات لدى العجوز «شفيّا» التي كانت تشاهدُ مسلسلًا بدويًّا ساعةَ دخولنا. لم تنتبه لنَا قدر ما كانت تريد معرفةَ ما سيجري عند الغدير في هذا المسلسل الذي قالت إنّها قد شاهدتُه عشرات المرّات، وتؤمن أنّ المشهد ذاته مهما تكرّر فإنّ الحدث قابلٌ لأن يتبدّل، أعادها المشهد لتحكي لنا عن «طامة العبيد»، كانت كلّ عائلتها من رجالٍ ونساءٍ يسوقون الأبقارَ عند

telegram @yasmeenbook

المغيب يقطعون وادي نجران وهم ينشدون: «ليلك سرى ياجازع الوادي**ليلك سرى في ظلّ وبرادي» وكان على أطرافه مِسكة سيلٍ خفيف، وعندما انتصفوا الوادي العريض سمعُوا لجلجةً وحنينًا هائلًا، وهبَّ عليهم هواءٌ رطبٌ برائحةٍ عطنة. فالتجؤوا إلى تبّةٍ تعلوها عروقُ العَبل، فجاءهم السيلُ متدافعًا جائعًا يبتلع كلَّ ما في طريقه. تساقطت الأبقار، وابتعدتْ مثل ذبابٍ في أعلى السيل. استمرّ السيل يحاصرُ التبّة التي يقفون عليها حتّى عصفَ بهم. فأخذَ أبوها بندقيّته «أم كرّار» وضربَ بها وسط هدير السيل، فخرج صوتٌ واهنٌ لم يتنبه له أحد. ذهب السيل بهم إلى حيث تركهم جثثًا متنفخةً في أسفل الوادي.

جرّت العجوز «شفيّا» صفيرًا من صدرها، ثمّ سكتت وقتًا طويلًا. أخبرتْني بعدها بأنّها تعرف جدِّي وأبي عندما كان صغيرًا، رغم أنّ أبي يتجاوز الثمانين حينها. كان والدُها وإخوتُها عمّالًا لدى جدّي على السواني. وصفت المشهد الأقسى في ذاكرتها وهي تمدهما بقرص بُرّ صغير وقت الفجر، تتذكر برودة المزارع والسواقي وهي تعبرها إليهم بلا حذاء، وهدير الإبل والبخار الذي يتصاعد من أنوفها في الصقيع ثمّ رفعت عينَيها، وأطلقت حكمها: «الله يذكرهم بالخير».

ضربت براحة يدها على أرض الحجرة، وقالت إنّ هذه القاع الجبليّة الكالحةَ كانت لا تُرى من كثافة النخل، وكانَ آل بوهلال يتغنّون شعرًا بجمالها، حتّى اقتلعها طوفانٌ قديم، جعلهم يبنون

telegram @yasmeenbook

تلك البيوت الحجريّةَ الموزّعة في الجبال هربًا من الغرق. ثمّ ردّدت مقولةً بعمر هذا الوادي الكبير: «نجران غرق غرقتين.. وموعود بالثالثة».

في حجرتها تختمرُ روائحُ بخورٍ قديمٍ ولاذع، الفراشُ البسيط واللّامتناسق تملأ مساماتِه رائحةُ الجاوي، والجدرانُ تكاد تخفي أدغالًا ومتاهاتٍ خلفَ قشرةِ الصبغ الفاقع اللون. قامت إلى غرفةٍ أخرى وجلبت في يدها «مطالًا» من الفضّة الغليظة، يُلبسُ إسوارةً في المعصم. لا أعرف علاقتَه بالأمر حتّى الآن.

جلستْ بساقَين ممدودتَين في ثوبٍ فضفاض. جذعُها منحنٍ، وبرأسٍ تكسوه قطابة سوداء. لباسُها لا يختلف كثيرًا عن لباس كلّ العجائز. نصبتْ ظهرهَا، ثمّ أركبت قدمًا على الأخرى وأنشبت إصبعَ قدمها الكبرى في نهاية ثوبها. لم يكن يبينُ منها سوى أصابعها المخضّبة بحنّاءٍ بنيّ يمتزج ببراعةٍ مع حدود جلدها الأسود، بدأت تهزّ جذعَها العلويّ في هزّاتٍ خفيفةٍ وهي مغمضة العينين. ثمّ فتحتهُما بشكلٍ مباغتٍ، ونظرت إليَّ، وقالت بصوتٍ بدا أكثرَ وعورةً من صوتها السابق: «خلك قريب منها». اهتزّت بسرعةٍ أشدّ أمام وجهَينا، وبدأ منخراها يتّسعان ويرتفعان. انطلقت أصواتٌ محبوسةٌ في داخلها، كانت كمقبرةٍ ينبعث منها الموتى، بدأتُ أرتعب وأتذكّر أنّ دوري يتطلّب الثبات. يداي جاهزتان للانقضاض على أيّ ردّ فعلٍ جسديٍّ من زوجتي، نظرتُ في وجه زوجتي ورأيتُ فزعَ روحي في ملامحها ودموعًا تسيلُ بلا بكاء. تذبذبت أطرافُها

telegram @yasmeenbook

قليلًا، وارتجفت شفتاها، والعجوز تُصعّد صرخاتها التي تهشّم كلَّ الحواجز بين المرئيّ واللّامرئي، شعرت بالهواء حولَنا مضغوطًا مثل قنبلة، وفي ذلك الوقت دنّ «المرفع» بصوتٍ حادّ، يضرب أربع ضرباتٍ بإيقاعٍ طقوسيٍّ مخيف. دخلت امرأةٌ سمراء مليئةٌ باللحم ووجهُها مغطًّى بالبرقع، وأجلست المرفع بقرب العجوز وزادت حدّةُ الطرق. كانت تمسك بيديها عودَين يابسَين بطول ذلك الذي يمسكه المايسترو في الحفلات الغنائيّة، تطرق أربع طرقاتٍ تحمل في جوفها لغةً أخرى لا أفهمها. استوت العجوزُ على ركبتَيها ويدَيها كدابّةٍ خُرافيّة. كانت تميلُ برأسها مع كلّ طرقةٍ في إحدى الجهات وتهزّه مع أنّاتٍ تملأ الفراغات الصوتيّة بين الطرق. اقتربتْ بوجهها، وبدأت تستبدلُ بالأنّات صرخاتٍ ناقصةً ومقطوعة. كنّا نشعر بأنّ نفقًا يؤدّي إلى خارج هذا العالم يلتهمنا. دخلنَا إلى الفجوة التي كانت تأخذنا إليها، كانت تلك الفجوة منطقةَ التبادل لفراخ الجنّ، أتذكّر أنّي صالبت يديَّ على زوجتي كأحزمة أمانٍ لمظلّيٍّ على وشك القفز. بعد حوالي ربع الساعة أو الثلث، تجرد فيها الزمن عن سلطته، عاجزًا عن السيطرة على ما يحدث في هذه الحجرة الصغيرة، اتّسعَ منخارَا العجوز، وشخرت كالمذبوحة، وطفت على شفتَيها مُلوحةٌ بيضاء، والأخرى أوقفت الطرقَ وهرعت إليها وهي تأمرنا بالخروج أو الهرب. سمعتُها تجأر بصوتٍ غريبٍ وتنطح رأسَها بالجدار وتردّد: «ليل داجٍ وكباش تنتطح، فمن نجَا برأسه فقد ربح».. ليل داج وكباش تنتطح، فمن نجَا..

telegram @yasmeenbook

خرجنَا مسرعَين من الممرّ إلى بابٍ حديديٍّ أحمر له صريرٌ مفزع. ومن بين الرياحين الكثيفة في سطول الأصباغ القديمة، عبرنا على الحصى إلى خارج البيت الصغير المغطّى بقبّعةٍ حديديّة. في ذلك الحيّ العشوائيّ والطرق الترابيّة والملتويات، كنت أدور بالسيّارة للخروج وأرجع إلى ذلك البيت مرّات. اضطُررت إلى إيقاف شخصٍ في سيّارته لإخراجنا من تلك المتاهة المدوّخة. وسرنا خلفَه تفصلنا عن الحدود اليمنيّة جبالٌ كُحليّة اللون وقيعانٌ صخريّة. في هذا المكان النازح الذي يبدو كأنه صرخة آلهة قديمة

تجاوزنا مركزًا لحرس الحدود تخرج من قفاه طريقٌ ترابيّةٌ ملتويةٌ تشقّ عرنونَ الجبل، وبقربه آثار سروّ «ذات علي»، تلك الحجارة المنحوتة كسُلّمٍ يعبرها المسافرون القدامى بركابهم وحميرهم وسمنهم وشياههم، وهي الطريق التي حملَ عليها أحدهم جثّةَ صديقه على ظهره بعد أن قتلَه هناك فوق تلك الجبال.

كانا عسكريَّين في حرس الحدود يتشاركان»دوْريَّة» واحدةً سنواتٍ طويلة. لم يحدث بينهما قبلَ ذلك اليوم أيّ خلاف، يقال إنّهما توقّفَا ظُهرَ ذلك اليوم البارد، وأشعلَا حطبهما وقتلَ أحدهما الآخر قبل فورة القهوة على النار. كان القاتل متزوّجًا منذ عشر سنوات ولم يستطع الإنجاب. وقد أحرجَ صديقَه بنكتةٍ لم يستطع الردَّ بمثلها. فاقترح على قاتله مازحًا أن يغيبَ اللّيلة عن زوجته ويرقدَ هو في مكانه ليمنحَها حيواناته المنويّة التي ستخترق بويضتها. وما إن أكمل جملتَه الأخيرة مراهنًا: «والله ما تصبح إلّا لقحة»، حتّى

telegram @yasmeenbook

خطفَ الآخرُ سلاحَه الجي ثري، وقال له: «امنع من نفسك». كان المقتول مفجوعًا يركضُ نحو سلاحه، ويحاول تهدئة الموقف. وما إن قبضت يداه على سلاحه حتّى كسرت الطلقةُ الأولى ساقَه، ثمّ منحه فرصة أن يحتمي بصخرة. تبادلَا إطلاق النار، ومازال الكسير يصيح في صديقه صيحات النادم، غير أنّ صديقه لم يكن يملك سوى الموت «عُزْران» ليعطيه إيّاه في تلك اللحظة. فأطلق عليه طلقةً أخرى نفضت رأسَه، ثمّ نزل به الجبلَ بعد أن اخترقت الطلقاتُ عجلات سيّارتهما. حمل جثّةَ صديقه كما يجب ولم يدعها ترتطم بأيّ حجرٍ في ذلك الجبل. وصل بعد ساعتَين إلى المركز، وصاح في زملائه، فخرجوا. ثمّ ألزمهم الشهادةَ بأنّ دمَ صديقه في ذمّته، وشحنَ بندقيّتَه وجَثَا على الأرض، وحشَر فوهة البندقيّة في حلقه فخرجت الطلقةُ من مؤخّرة رأسه، ورقَد بجانب صديقه.

telegram @yasmeenbook

تقترب الساعة من الثامنة صباحًا، يبتعد صاحبُ الفورد كراون عن الرؤية، وأنا أخطِمُ سيّارتي على طريق العودة. مضى نصفُ يومٍ وبقيَ نصفٌ آخرُ لا يمكن إيقافه، تنحرّتُ جهة الجنوب واستويتُ على الطريق الملتهبة، أعبر هذه الصحراء المتصالحة مع فقرها إلى كلّ مظاهر الحياة، لا أملك سوى فائضٍ من القلق، وقدّاحات السجائر، ونقصٍ فادح في بقيّة الأشياء. أمارس الندمَ وأعتذر لحياتي عن كلّ المصادرات التي سمحتُ لها أن تحدثَ دون مقاومة، وعن التسرّب الذي رأيتُه أمامي ولم أوقفه. أعتذر لحياتي عن بُقَع الخوف التي لطّختُها بها، وعن القلق الدائم الذي تركته يفترسها.

كانت إبل «مجاهيم» سود، متباعدة، تعبر الصحراء. متوجّهةً بإصرارٍ نحو قرص الشمس غير آبهةٍ ببُقَع السراب المتلألئ بين أخفافها، تتلاشى واحدةً تلو أخرى في الأفق.

شعرتُ بإبرة يأسٍ تنغرس في عنقي، لم أعد أبالي بشيءٍ ولا أرغب إلّا في الأكل وشرب الشاي والنومِ بجانبها. توقّفتُ بعد نصف ساعةٍ في محطّة بنزينٍ بها مطعمٌ بسيط. وطلبتُ صحنَ

telegram @yasmeenbook

شكشوكة وكأسَ شاي. التهمتُها بلَا حوَاسَّ، وغفوتُ بسرعة. كنتُ جالسًا على الدكّة الإسمنتيّة وظهري إلى الجدار. انتبهت على صوت عاملِ المطعم ينادي برفق: «صديق..صديق»، صحوتُ منكمشًا على نفسي متوسّدًا يديَّ وأغطّي وجهي بشماغي. تركني العاملُ حوالَي الساعة. غسلتُ وجهي، وطلبتُ كأسَ شايٍ آخر للطريق. أريد أن أصلَ إلى هناك لأكونَ في كنف الأقدار مثل شاعرٍ يسلم ملكًا رسالةً تقضي بقتله أو تخليده. خرجتُ لمواجهة هذا اليوم الشرس مرّةً أخرى، يرافقني نشاطُ أتربةٍ وأشباحُ النهايات تلوح في أفقي.

عقلي الآن يعبر منطقةً غير آمنة، كما تعبر شاحنةُ نفطٍ منطقةَ حرب، كأنّ هناك قنّاصًا محترفًا يلاحق أيَّ أملٍ يتحرّكُ في داخلي ويقتله، وأعرف جيّدًا أنّ الأمل كائنٌ هشٌّ يموتُ لأدنى سببٍ وإن لم يجد ذلك السببَ فهو يحبّ الانتحار. افتتحت أوّل مقبرةٍ جماعيّةٍ للأمل في عمليّة أطفال الأنابيب الأولى. كنتُ على ثقةٍ أنّ النتيجةَ مضمونة. وبعد إجراء العمليّة والانتظار أسبوعَين، خرجت النتيجةُ بلا حمل، عكس زوجتي التي لا تشعرُ بأيّ ضماناتٍ لهذه النتيجة. بعد أن خرج علينَا أخصائيُّ المختبر وقال: «النتيجة سلبيّة». اختلطت لديّ الأمورُ ولم أفهم بسرعة. ركبنا السيّارةَ عائدَين إلى البيت ولم نكن وحدنَا هذه المرة، نجرّ كائنًا سلبيًّا ضخمًا قد لا تتّسع له حياتُنا. أُكرِهْنَا على تربية هذا المولود السلبيّ والاستماع إلى بكائه آخر الليل، واحتلّ مساحته الخاصّة في حياتنا منذ تلك اللحظة.

telegram @yasmeenbook

وبعد حينٍ جلبنا له من النتائج السلبيّة أخواتٍ ملأنَ البيت، لديّ شهاداتُ ميلادهنّ في ملفٍّ طبيٍّ أحتفظ بها أدلّةً قاطعةً على أنّ حياتي تعرّضت لعملٍ تخريبيّ.

في المقعد الخالي بجانبي، تتمدّد رائحة العدم مُلغيةً حضورَ كلّ شيءٍ ما عداها، ذلك العدم الذي رافقني طيلة الخمسة عشر عامًا، جعلني حضوره الطاغي أنسى الأشياءَ الصغيرةَ بسهولة. الآن تفقدتُ جيبي وسيّارتي، ولم أجد جوالي. وعليّ العودةُ إلى المحطّة ومطعم الرجل الهنديّ. مازلتُ قريبًا ولم أعد أهتمّ أيَّ اتجاهٍ أسلكه.

توقّفتُ قربَ المطعم، ولم أجد الهنديّ. التففتُ خلفَ المبنى، وجدتُ بابًا صغيرًا يطلّ على صحراء شاسعة، وبقرب هذا الباب نباتاتٌ عطريّةٌ ودجاجاتٌ تقوقي وديكٌ يقف على علوٍّ متمسكًا بقطعة خشبٍ تخرج من سقف الحُجرة. تحرّك شيءٌ نائمٌ على الباب، كان الكلبُ الذي لم أنتبه لوجوده، وقفتُ أتأمّلُ هذه القريةَ الصغيرةَ التي خلقها الهنديّ في هذه الصحراء المقفرة. خرج وأعطاني جوّالي وهو يخبرني أنّه أصدر أصواتًا كثيرةً في غيابي.

ركبتُ، وفتحتُ شاشةَ الجوّال. كان رقم البدويّ حمد الأصدع الذي التقيتُه أمام غرفة العمليّات. أعدتُ الاتّصال به، وردَّ مباشرة. قال إنّه أمامَ حضانة الأطفال وإنّ جميع الأطبّاء والأجراس الطبّيّة والإضاءات تتركّز على ابنتي. قلتُ له: ابقَ معي، لن أُغلقَ حتّى تؤكّد لي موتَها، أمّا حياتَها فهي بعيدةٌ عن المؤكّد بمسافات. صوتُه

telegram @yasmeenbook

مزعجٌ وعجولٌ وفوضويٌّ في كلامه الذي يداهم عقلي مثلَ قردةٍ تخرّب كلَّ شيءٍ في طريقها. انتظرتُ معه أقلَّ من دقيقتَين وهو يخبرني عن زوجته وطفلتِه قليلًا، ثمّ يقفز إلى طفلتي ويحاول وصفَ ما يحدث. سكتَ، وأبلغني أنّ أصوات الأجهزة الطبّيّة بدأت بالخمود، وتراجع الأطبّاء إلى الخلف. نهايةٌ بسيطةٌ ومستوية. أغلقتُ الاتّصال وهو يعزّيني. كنت أقود سيّارتي بالسرعة نفسها ودون أيّ شعور. ولم أفكّر في إبلاغ أيّ أحدٍ بالأمر. تفقّدتُ درجة المكيّف مع ارتفاع الشمس ودرجة الحرارة على الطريق. مشيتُ نصفَ ساعةٍ كنتُ فيها اللا مبالي الأبدي، المهمل المحترف، العدميّ، العبثيّ، الفائز بسباقات اللا جدوى، اللا أخلاقيّ، الكافر بكل شيء واللا شيء، الذي يبيع -على نفسه- قطع الكذب نيئًا، كلما اشتدتّ الحمى على المؤكد، وسُفحت دماء اليقين... أعرف أنّ الله يعلم ذلك؛ ويعذرني..

..وصلت رسالةٌ على الواتساب، إنّه زوجُ أختي الذي لا أحبّه. كان يريدُ الإرسالَ إليها، فاتّجهت الرسالة إليّ: «أنا عند بنت علي بن سعدى في الحضانة والأطبّاء يقولون إنّها بخير..!!» حذف الرسالةَ ومازلتُ أحدّق فيها مصدومًا. اتّصلت به، ولم يردّ مباشرة. عاود الاتّصال وبدأ بالاعتذار عن الخطإ في الرسالة. سألتُه: أين أنت؟ فقال: عند قسم الحضانة وقابلتُ الطبيبَ وأخبرني أنّ المولودة وضعها مستقرّ. فنهرتُه بعدائيّة: «ابنتي ماتت قبل نصف ساعة». صمتَ قليلًا، ثمّ سألني: «كيف؟!! أنا عندهم الآن». طلبتُ منه

telegram @yasmeenbook

أن يعطي الجوّال للطبيب لأسأله. أخذه الطبيبُ وأبلغتُه بمكالمة البدويّ، فقال إنّ التي ماتت مولودةٌ أخرى، والرجلُ كان يقف خارج القسمِ ولم يسأل أحدًا منّا..

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

الساعة الحادية عشرة والثلث، أوقفتْني نقطةُ تفتيشٍ على الطريق، طلبُوا هويّتي الوطنيّة، نظر في الصورة وفي البطاقة وقرأ اسمي مستفهمًا: «علي بن مانع؟..» فأومأتُ له برأسي ومشيت. اسمي في بطاقة الأحوال «علي بن مانع»، واسمي لدَى الجميع هو «علي بن سعدى»، لا يوجَد سببٌ واضحٌ لاسم الشهرة الذي أحمله، لديّ إخوةٌ وأخواتٌ وليس غيري يُدعَى باسم أمّه. هكذا تحدثُ الأمور في مجتمعٍ لا يفهم نفسه. قد تكون المرأةُ مصدرَ فخرٍ في أوقاتٍ نادرة، وفي كلّ الأوقات الأخرى يكون ذِكرُها عارًا وقد يُعَدُّ انتهاكًا للشرف.

ارتباطُ اسمي باسم أمّي يقع في مكانٍ محايدٍ من كلّ ذلك. إنّه يمضي هكذَا بلا محاكمات. يقولون إنّ جدّي عندما وُلدتُ كان غاضبًا على أبي. ولمّا عرف أنّه أسماني «عليّ» أضافني هو إلى أمّي وتعمّد نطقَه وتكرارَه، يبدو أنّ جدّي كان يخوض معركةً أبويّةً مع ابنه ويحاول إخضاعَه نفسيًّا لسلطته ونَفْيِه من موضعه الأبويّ بنسبتي إلى أمّي. ثمّ إنّ كبيرَ العائلة عندنا هو إلهٌ صغيرٌ على الجميع تقليدُه والتشبّه به.

telegram @yasmeenbook

كانت قصّةُ تسميتي المتعسّفة من جدِّي، تعيدُ إلى الأذهان إحدى العجائز من قبيلتنا. لم يرزق أبوها بصبيٍّ رغم محاولاته مع زوجاتٍ كثيراتٍ لكنّه لم يفلح في الإنجاب، حتّى جاءت هذه الابنة في وقتٍ متأخّرٍ لا يحتمل مغامراتٍ جديدة. فقرّرَ برأسه الصّلب أن يخالفَ كلَّ النواميس الكونيّة ويحتسبها ابنًا بالقوّة، وجعل لها سهمًا في «الغُرْم» الذي يقع على الرجال وحدَهم، ولم يجرؤ أحدٌ على معارضته، فأسماها «حمد بن حسين» فاشتهرت بـــ«أبو حسين» حتّى اليوم. لكنّ أمّها كانت تناديها في الخفاء بـ«حمدة»، وتدخلها إلى المطبخ في غيبة أبيها. فسمعها يومًا تغنّي وهي تغسل دِلال القهوة: «أنا زينة يادلّة؟.. أنا زينة يا برّاد؟ أنا حمـــــــدة بنت حسين»، فزوَّجَها لابن أخيه بعد أن طرّها الحيضُ أوّلَ مرّة، وهي الآن أمّ لأطبّاء ومهندسين وتُحبّ كلّ من يناديها بـــ«أبو حسين».

يحدث أن تمنحنا الحياة صفعةً وقُبلةً معًا، وكلّ ما علينَا أن نحتفل بالقُبلة مع الجميع ونعالج الكدمات وحدَنا..

قد تكون لانتشار اسمي بهذا الشكل أبعادٌ أخرى غير عدم الاحترام الذي استقبلني به جدِّي. إنّه الإيقاع الذي يغفرُ بعضَ المحرّمات الشعبيّة، نحن قومٌ نحبّ الإيقاع في كلامنا، مناداتي من الجميع باسم «علبن سعدى» بحذف ياء عليّ تمنح الاسمَ جريانًا وإيقاعًا جيّدَينِ. الإيقاع يمتزج بكلّ شيءٍ لدينا كما لو أنّه ديانةٌ وجدانيّةٌ نخفيها كما نخفي العشيقات السرّيّات. لقد كان كلّ شيءٍ

telegram @yasmeenbook

في حياتنا يأخذ اسمًا حتّى وقت قريب، عائلة النخل الصغيرة التي نحلني إيّاها جدِّي كان اسمها «بني ذبابة» لأنّ النحل والذباب كانت تجتمع حول رطبها العسليّ، والنعجة التي وهبتني أمّي كان اسمها «الشقما»، والأبنية الطينيّة والسُّبل الضيّقة بين المزارع وكلّ بئرٍ أو تغريدة طائرٍ تتحوّل إلى شريكٍ في سمفونيّة الإيقاع. كانت جدَّتي عندما يهدل الحمام حولَنا في وقت الظهيرة تترجم لنا ما تقوله الحمامة بإيقاعها نفسه «عـط.الصُّبيّ. حقّته..لا تخـــبطه جَدّته».

رأت هذه الجدّة بحدسها وتجربتها المريرة في حياتها أن تزوّجنا. لم يكن إجبارًا كما يفعل الأجداد المتسلّطون، فالنساء طوّرنَ أساليبهنّ الدفاعيّة ضدّ وحش الإلغاء وقفزنَ إلى الألاعيب النفسيّة والعقليّة حتّى يتمكنَّ من تقاسُم قرارات هذه الحياة مع الله والرجال. في تلك الحالة قرّرت جدَّتي أن تعلن أنّ أحدَنا للآخر منذ صغرنا. وكانت تحرص على تغذية اللّاوعي العائلي بهذه المعلومة، حتّى تحوّلت إلى حقيقة لم تتمكّن الجدّة من حضورها. ماتت قبل أشهرٍ قليلةٍ من زواجنا، حدست أنّ اقتران علبن سعدى بأروى بنت صالح له إيقاعٌ لن يخيب، لا نعرف لَماذا اختارتنا من بين أحفادها الكثُر، لم يكن من هواياتها المساسُ بأقدار مَن حولها، رغم أنّها الهواية النسويّة الأولى. استغللنَ المساحة المحرّمة بين الرجل والمرأة ليشاركنَ الإله مهمّة اختيار الأزواج، كنّ الوسطاء والمستشارين لكلّ زوجَين سيصعدان سفينة نوح، فكلّ زواجٍ هو صعودٌ لهذه السفينة التعيسة، ونجاةٌ من طوفان الانفراد والوحدة الذي يختصّ الله به ذاته.

telegram @yasmeenbook

رحلت الجدّة الطيّبة إلى الله، بوجهٍ أبرشَ مملوءٍ بحفرٍ صغيرةٍ تركها وباءُ الجدريّ، ومعها من الحكايات والشعر والأساطير ما يمكن أن يسلِّيَ سكّانَ السماوات. كان زواجُنا وصيّتَها الأخيرة التي تتمسّك بها، ومنحت هذه الأمنيّة من الوفاء والإخلاص ما يكفي لأن تتحقّق. كانت هذه مغامرتها الوحيدة والغامضة، إنّها تشبه مغامرات عمليّات أطفال الأنابيب والحقن المجهريّ. كلتاهما قفزة في الظلام، ليس الظلام الذي نعبره ونتخبّط فيه ثمّ نخرج، إنّه ظلامٌ ساكنٌ ومقيمٌ. لا ألوم جدّتي أو أطبّاء الإنجاب على أيّ شيء، هي فحسْب محاولةٌ لاستدراج الظلمة المدسوسة في مكانٍ لا تصل إليه يد الأطبّاء ولا التضرّعات للإله ولا حدس الجدّة.

السحرة وحدَهم يزعمون قدرةَ الوصول إلى تلك الظلمة، تسمّى في عالمهم الغامض «عملًا» وباستطاعتهم تفكيكُه وإبطالُ مفعوله. قادني أحدُ السحرة إلى خزّان الماء المحشور في ركنٍ مُهمَل من حوش بيتنا. بقرب ذلك الخزّان شجرةُ تينٍ قديمةٌ مجاورةٌ للسور، لهذه التينة لحاءٌ أقرب إلى جلد آدميّ، ولأوراقها خشونة كفّ مزارع، تتسلّق الهرّة الجدار من الخارج ثمّ تتّخذ من التينة طريقَها بقفزةٍ إلى الخزّان وتهبط إلى أسفل برشاقة؛ لتجد حصّتها اليوميّة من الأكل على قطعة خشبٍ مبقّعةٍ بالدهون، تمدّها أمّي بالفائض من اللحوم وتنثرُ بقيّةَ الأرز تحت نخلةٍ تبتعد مسافةً آمنة من الهرّة. وفي العصر يأتي حمام «الغَرَد» بريشه الأصفر الذي يكسو بطنَه، يستطلع المكانَ

telegram @yasmeenbook

من فوق أسلاك الكهرباء، ثمّ يحطّ بحذرٍ وينهي وجبتَه ويطير نحو مساكنه في الجبال.

من قمّةٍ مجهولةٍ بمرتفعات ظفار إلى بيتٍ في ظِلّ جبل بنجران، كان ذلك الساحرُ في اتّصالٍ مباشرٍ معي ولديه خارطةٌ تفصيليّةٌ لبيتنا، يوجّهني بدقّةٍ حتّى دخلتُ بصعوبةٍ بين الخزّان والجدار. قال: «ستجد هرّةً حولك تبحث في الأرض»، وكانت فعلًا هناك تخمش الترابَ بيديها ثمّ هربت. وصلتُ إلى مكانها، فوجدتُ أعوادًا وشريحةً من ليف النخل ملفوفةً بشعر امرأةٍ وبقعًا داكنةً أخبرني بأنّها دمُ هدهد. أرعبني الموقف وكيف رآه هذا الساحر على بعد أكثر من ألف كيلومتر!! كان يملي عليَّ التعليمات بحذرٍ شديد، وكنت أحلّ هذا العمل كما يفكّك ضابطُ متفجّرات قنبلة. حرّرتُها بعد تعرّقٍ وجفاف في حلقي، ومضيتُ متيقّنًا أنّ سلالتي تحرّرتْ معها. أخبرت أروى بما حدث، وتشاركنا شعورًا يشبه هدمَ جدار برلين، توهّمنا أنّ أحدنا يرى الآخرَ كما لو أنّها المرّة الأولى. تبادلنا أوهامًا ومشاعرَ صغيرةً كنّا نراقبُها بعد التحرّر من هذا العمل. نِمْنا جيّدًا وبلا كوابيس، وشعرنا بأنّ صباحنا في اليوم التالي خفيفٌ ومفتوحٌ على كلّ اتّجاهات الحياة. أمضينَا أيامًا ونحن نُحصي الملاحظات الدقيقةَ في أجسادنا وملامحنا ورؤية وجهَينَا في المرآة ومشاعرنا نحو كلّ شيء. تراكمت الأسابيعُ والشهور ودارت الأقمارُ حول الأرض، بزغتْ الأهِلّةُ واكتملت البدورُ وتتالت الانمحاقات، ونحن ننتظر جرسًا سماويًّا يطرق أحدَ صباحاتنا بخبر. لم نعرف

telegram @yasmeenbook

وقتَها أنّها مجرّدُ خدعةٍ تُدعى الأمل، ذلك الذي يتحوّل إلى وهم ومن ثَمّ إلى إيمان. كان يمكن لهذا الإيمان أن يتحوّل إلى حقيقةٍ لو أنّه نجح في مهمّته، لكنّه فشل في التحوّل إلى جسدٍ مادّيٍّ صغير، كذلك تُهزم اليقينيّات والعقائد دائمًا بأنْ تفشل في التحوّل إلى شيءٍ محسوس في هذا العالم.

السحر عدو الدين التقليدي، وكلاهما يعملان في الحقل المظلم للنفس البشرية، يتنافسان على من يحطب أكثر في غابات مخاوفنا، يتنازعان على لحظات ضعفنا. لكنّ السحر أنجب العلم والدين لم يقبل رذيلة التكاثر. وها هي حياتنا تتعلّق في ذراع العلم وشبابه المخادع.

telegram @yasmeenbook

الساعة الثانية عشرة إلّا الرّبع ظهرًا. على ذلك الطريق الذي يجتهد في إنقاذ ذاته من الاختناق برمال الصحراء، أفكّرُ في شكل حياتي بعدَ هذَا اليوم. قد تكونُ حُفرةٌ صغيرةٌ وصلاةُ جنازةٍ كافيتَين لإعلان استسلامي. بعض الهزائم علينا أن نضعها في رفّ الانتصارات، وهذه ستكون هزيمتي التي أُبرِزُها في وجه حياتي الباقية.

الشعور بنصف الهزيمة يجلب نصفها الآخر، أمّا لا مبالاة الواثق من هزيمته، فتحرّر قوى الإنسان من خوفه وتأخذه في طرقات لا متوقعة إلى النجاة. وليس علينا سوى أن نفكّر في النجاة فقط، فلنقل نجونا ولا نقل انتصرنا، فكل ما نظنّها انتصارات في هذه الحياة ما هي إلَّا فخاخ ينصبها الإنسان لنفسه...

..الجوّال مثبّتٌ في حاملٍ بجانب مقود السيّارة، وعيني اليمنى ترقبُ أيَّ انبعاثٍ ضوئيّ على شاشته. لن تكون هناك أيّ ارتجالاتٍ أو ردود فعلٍ دراميّة لأيّ خبرٍ قد يصلني.

وصلتُ إلى مفرق وادي الدواسر الذي كنتُ عبرته قبل الفجر وأدعيةُ أمّي ترافقني. وقفت لأصلّيَ وأشرحَ للسماء بعضَ نقاطٍ لا

telegram @yasmeenbook

تفهمُها. نحن دائمًا نبحث عن تفسيراتٍ تأتي من السماء، وأظنّ أنّ السماء أحوجُ إلى تفسيراتٍ عمّا يجري على هذه الأرض البعيدة. قد لا يبدو الوضع مثاليًّا لفتح حوارٍ بين الأرض والسماء، في هذا المسجد المتهالك والهواء الكاوي والفراش المتهتك. لكنّي لا أملك رفاهيةَ اختيار الوقت المناسب في علاقةٍ تعبر اختبارًا صعبًا.

انتصفتُ في صلاتي وارتعدَ الجوّال في جيبي. قطعتُ الصلاةَ مباشرةً وأخرجتُه. إنّها أروى. أجبتُ على الاتّصال بهدوءٍ ومواساةٍ يتصدّران صوتي. كلّمتْني بصوتٍ خفيضٍ وفرحةٍ غامرة، تحدّثني من قسم الحضانة وهي تقابل ابنتَنا. لقد أخذوها على كرسيٍّ متحرّكٍ إلى هناك بعد أن أبلغَها الطبيب باحتمال خروجها اليوم، سألتُها ماذا ترَين؟ صفي لي شكلَها؟فردّت بسخريّة أنّ عينيها ضيّقتان تشبهان عينيّ، ولها حاجبان كثيفان متّصلان مثلي تمامًا، وكلّ الملامح الأخرى تميل إليَّ أكثر من ميلها إليها. وبدأت تتحدّث عن أطرافها وفمها حتّى وصلت إلى ضرورة شراء ملابسَ لها، وأنّ هذه غلطتي لأنّي رفضت معرفة جنس الجنين والتجهيز له مبكّرًا. خُضنا في هذه التفاصيل أثناءَ الاتّصال، وبعد أن ودّعتْني، استدركتُ بسرعة: «علي .. وش نسمّيها؟».. تلعثمت، حاولتُ نطق الاسم الذي أدفنه في داخلي منذ زمنٍ بعيد، لم أستطع الإجابةَ فقطعتُ المكالمة كأنّي لم أسمع شيئًا.

قبل سبع سنواتٍ أو ثمانٍ، كنت أحظى بساعة غداءٍ من الثانية عشرة إلى الواحدة ظهرًا، وفي طريقي إلى البيت مدرسةُ بناتٍ ابتدائيّة،

telegram @yasmeenbook

يخرجن في ذلك الموعد تمامًا، أشاهدهنّ يوميًّا يتزاحمن عند الباب الضيّق للمدرسة المستأجرة، بلباسهنّ الورديّ والأبيض وحقائبهنّ المائلة على ظهورهنّ الصغيرة، والبهجة التي تعلو وجوههنّ وضجيجهنّ الناعم. ورودٌ بشريّةٌ تنتشر في شارع الإسفلت الذي يتوسّط الحيّ، أبطئُ سيّارتي وأتذوّق بكلّ حواسّي طعمَ الأبوّة المفقود. تمنّيتُ أن يكون لي بينهنّ ابنةٌ أقفُ بسيّارتي وأحملها معي إلى البيت كما ينتظر كثيرٌ من الآباء هنا. كانت أكثر اللحظات التي تخدّر حياتي، عندما أسمع ذلك الرجل الأسمرَ وهو يصرخ بميكروفون في يده: «بنااات سعيد مهدي.. تولين عبدالله علي.. توليـــــن.. ياارا زبّااااع..زبباااع»، فكنت أغمض عينيّ وأصغي لصوت ذلك الحارس وهو ينادي باسم ابنتي. أنتظرُ اسمَها أنْ يتردّد في روحي بصوته، حتّى سمعته يناديها في حُلم اختلس بقيّة ذلك اللّيل للسهر. سهرتُ مع اسمها ومضيت صباح اليوم التالي ولديّ ابنةٌ لها اسم جميل ترتاد به المدرسةَ. أحاول الآن ذكرَ اسمها وترتعد يداي، وقد تعثّرتُ مرارًا كثيرةً في البَوح باسمها لأروى، أكتم اسمَها لأنّه يسبّب لي لذّةً خاصّةً في روحي، أحاول إخفاءَ اسمها عن ذلك اللصّ المتربّص الذي يجوس غرفَ المستشفيات.

انعطفتُ مع مركز وادي الدواسر جنوبًا، الشمسُ متوحشّةٌ تفتك بأيّ كائن يسير أو يطير تحتها. والسيّارات والمباني البعيدةُ تنصهر في ضوء الشمس المتأجّجة. أصبحت الآن في مواجهةٍ مباشرةٍ مع نجران. اجتاحني غضبٌ على كلّ شيءٍ في هذا الكون،

telegram @yasmeenbook

وكأنّ عقلي وُضِعَ في قِدْرٍ يغلي. تحوّلت مشاعري اللّامبالية إلى أفكارٍ شرسةٍ جائعةٍ تنهشني من كلّ الاتّجاهات. تناولتُ الجوّالَ بسرعةٍ، وبدأتُ أُجري اتّصالاتٍ كثيرة، توصّلت من خلالها إلى رقم مدير المستشفى. طلبتُ منه طائرةَ إخلاءٍ بأسرع وقت، لم أعطه فرصةً للكلام حتّى صرخ: «ياخي تفكّر الطائرة واقفة في بيتي؟!». قذفتُه بالألفاظ المتعارف عليها في الشتائم، ثمّ تتبّعتُ أرقامَ كلّ مسؤولٍ يستطيع المساعدةَ في هذا الأمر. تحوّلتُ إلى صاروخٍ مليءٍ بالشظايا الملتهبة، أريد فعلَ أيّ شيءٍ حقيقيٍّ لإنقاذ ابنتي، قبل أن تطالَها مخالبُ الموت.

بعد وقتٍ قصيرٍ وصلتني رسالةٌ من مدير المستشفى تحمل رابطًا لتويتر، فتحتُها فوجدتُ ابنتي معلّقةً في سقف الخطّ الزمنيّ لتويتر. مغرّدون يشاهدهم مئات الآلاف ولهم شعبيّةٌ جارفةٌ في المنطقة، بثّوا تغريداتهم وتصاعدَ التفاعلُ بكثافةٍ جارفة. أتابع ذلك «الهاشتاق» وهم يسكبون فيه كلماتِ الشفقة والتعاطف والمطالبات الغاضبة والاسترحام وتسوُّل المسؤولين طائرةَ إخلاء. صورة ابنتي تنتشر في تويتر والأجهزة تحكم قبضتها على كلّ جوارحها. لا أعرف كيف حصلوا على تلك الصورة والقصص المأسويّة التي ألّفُوها عن حياتي. صارت حياتي الخاصّة بينهم مثل وليمةٍ وقعت بين عصابة هِررة في أحد الأحياء الفقيرة، يتنافس المغردون بشفقةٍ قاسيةٍ على تعرية أحزاني في شارعٍ محتشدٍ بالجماهير. مقتُّ نفسي أن توضع في هذا المزاد الإعلاميّ، ثمّ أعدت التفكير بمنطقٍ نفعيٍّ ورأيت أنّه

telegram @yasmeenbook

حدثٌ عابرٌ لكلّ هؤلاء يتّجه إلى حيّز النسيان، لكنّه حدثٌ باقٍ في ذاكرتي إلى الأبد.

توالت الاتّصالاتُ على جوّالي، أقاربُ تعاطفوا معي بناءً على تعاطف مشاهير تويتر، وهم يعرفون ما يجري تمامًا ولم يهتمّوا! غامضةٌ مشاعرُ البشر وعواطفُهم، ومعقّدةٌ طباعهم، قد نحزن ونملؤنا الإنسانيّة لقصّة كلبٍ مأسويّة في اليابان، ونعتاد على مآسي مَن حولنا حتّى تفقدَ أدنى اهتمام لدينا.

«أبو تميم يتصل بك..» أحد زملائي السابقين في العمل، شابٌّ متخرّجٌ من جامعاتٍ أمريكيّةٍ ويواكب كلَّ جديدٍ في وسائل التواصل، لا يشتبك مطلقًا في الفضاء العامّ بآرائه واسمه، يقف مثل كثيرينَ غيره على حافّةٍ يراه المتديّنون متديّنًا، ويسجّلُ حضوره القبليّ بانتظام، ويمارس في الخفاء روحَه العصريّةَ وجوعَه إلى الحياة الحديثة. يتابع ما يجري في الحياة ولا يعيشها، مثل سجينٍ يشاهدُ فيلمًا عن الحريّة. أعرف أنّه قرأَ الخبرَ في تويتر ويرغبُ في تفاصيلَ تساعده في لفت اهتمام أحد المشاهير، يتواصل معهم ويمدّهم بأخبارٍ وآراء في صناديقهم الخاصّة.

لم أُجِبْ على الهاتف، وضحكتُ بشفَةٍ سفليّةٍ مفطورةٍ ومدماة من المنتصف، هذا الجرح بصمةٌ جينيّةٌ لدى عائلتنا في المواقف الصعبة.

يتسقّط أبو تميم أخبارَ جميع الزملاء، ويعيد تدويرَها في المكاتب الأخرى بطريقةٍ مميّةٍ لا تضعه في تصادمٍ مع أحد. جاءني ظهرَ أحد

telegram @yasmeenbook

الأيّام متوضّئًا والماءُ يقطر من يدَيه، وهو يفعل ذلك أمام الجميع، لا بدّ من جرجرة مياه وضوئه اليوميّة في كلّ المكاتب. طلب منّي إقفالَ المكتب لأمرٍ شخصيّ. رحّبتُ به وأصغيتُ لكلامه الذي بدأه بأنّه يحتاج إلى استشارة. قصَّ عليَّ بحرجٍ في صوته وملامحه مشكلةَ صديقٍ أو قريبٍ له تزوّجَ قبل أربعة أشهر، ذلك الشابّ المجهول متديّنٌ ولم يقع نظرَه على فرج امرأةٍ لا في الواقع ولا في العوالم الافتراضيّة. وصفَه بأنّه يخجل حتّى من عورته، عزمَ على الزواج وتقدّم إلى ابنة خاله الذي تربطه بأبيه علاقةٌ قويّة، تزوّجَا، وبعد اختلائه بزوجته لم تنتصب ذكورتُه، كان يغرق في حَرجٍ شديدٍ من وجوده مع امرأة. تضاعفت الحالة في اليوم الثاني والثالث واستمرّت ترافقه كلّما اختلى بزوجته، رغم أنّه إذا اختلى بحيوانه الصغير واستنهضه يُلَبِّ النداء ويقفُ بصلابة، ختمَ كلامَه باستشارتي في الأمر وبأنّ الأطبّاء أعطوه كلَّ المنشّطات الجنسيّة وبعضَ الأدوية النفسيّة، لكنّ ذكورتَه المغمى عليها لم تتحرّك. فكّرتُ حينها، وطرحتُ عليه ما طرأ في ذهني: لا بدّ أن يمارس الجنس مع امرأةٍ أخرى. فقلتُ له أن يسافر إلى دُبي مع أحد مدمني الجنس في الفنادق ويشرب ما يستطيع من الويسكي ثمّ يحاول مع إحداهنّ، قد يكسر هذه الأغلال التي تقيّد فحولته. جحظَ أبو تميم بعينَيه محتقرًا الفكرة، ولمّح أنّه اضطرّ إلى سؤالي لأنّي أقدرُ شخصٍ على فهم المشكلة.

خرج أبو تميم، وتابعتُ أنا عمَلي. لكن في طريقي إلى البيت مرهقًا وجائعًا، دفعَ عقلي ببعض الاستنتاجات المتأخّرة: أبو تميم

telegram @yasmeenbook

جاء يسألني لأنّه يظنّ أنّ عضوي لا ينتصب!! كان يريد أن أمنحه تجاربي في إيقاظ هذا العضو، ليقترحها على صديقه المتورّط مع ابنة خاله. غضبتُ دقائقَ وضحكتُ على غبائي. كان أبو تميم يرى فيَّ حالةً نموذجيّةً للخصاء، ولم يجد مستشارًا أفضل منّي للحديث عن عضو رجلٍ آخر. أعرف أنّ «أبو تميم» يستمدّ قيمتَه لدى الآخرين بلعب دور الملجإ والملاذ لكلّ من لديه مشكلة، يحاولُ إيجادَ الحلول بإخلاصٍ لتعثُّرٍ في سداد دَيْنٍ أو تعثّر عضوٍ ذكريٍّ في الانتصاب!!

.. وصلتني رسالةٌ من مكتب النائب تدعوني إلى التواصل. تكلّمتُ معهم وطلبُوا تقريرًا طبّيًّا للحالة وبعضَ الوثائق الأخرى. أثناء الاتّصالات والتجهيز للتقرير غفلتُ عن تويتر، هناك يحتفلون بالنائب وبإنسانيّته ويتضرّعون له عند الله. أعلنَ أحدُ المشاهير أنّ النائبَ تكفّلَ بعلاج المولودة، بينما كنتُ على تواصلٍ مع مدير مكتبه ولم يُبلِغني بذلك. أعدتُ التواصل معَه ورفعتُ له التقارير، وسألتُه عن حقيقة ما يقال في تويتر. فامتعض من سؤالي، وردّ بجملٍ فضفاضةٍ فيها مساومةٌ رخيصة. فهمتُ من كلامه أنّ سؤالي تشكيكٌ في كرم النائب وإنسانيّته العظيمة، وأنّي محتاجٌ ومنعدمُ القدرة أمام قدرة النائب. وتركني معلّقًا في خطّ الاتّصال دون نهايةٍ سلميّة.

انتهت حفلةُ تويتر الإنسانيّة، خرجَ منها كثيرون بمكاسب جماهيريّةٍ، وكانت حصّةُ الأسد للنائب طبعًا، وابنتي في مكانها المتأرجح بين هاويتَي الوجود والعدم. هذه النهاية السعيدة

telegram @yasmeenbook

والسريعة في تويتر ستقتلُ أيَّ وعودٍ أو محاولاتٍ جادّة. لم تعد حياتها أو مماتها مرتبطين بمصلحة أحدٍ منهم.

غرّدتُ بحسابي، وهو يحمل اسمي ولا أستخدمه إلّا لتشجيع نادي النصر وإعادة تدوير أغاني طلال مدّاح وأشعار مساعد الرشيدي، فلم يصدّق أحدٌ أنّي أبٌ لهذه الطفلة. طلبت من الجميع المشاركةَ والتصعيد وأنّ خبر النائب ليس صحيحًا، فهاجمتني حساباتٌ مُدرّبةٌ وأخرى هوجاء، سلبوا حقيقتي في عالمهم الافتراضيّ، كلّهم ادَّعَوا التواصلَ مع والد الطفلة وأكّدَ لهم صحّةَ الخبر. تذوب الحقائق في هذا العالم الملفّق مثل محلولٍ يسري في وريدِ ميت.

..خرجتُ من تغطية شبكة الجوّال وأنا في قرار الصحراء، بعيدٌ عن كلّ ما يجري لابنتي على الضفّة الأخرى. سيلٌ من التخمينات الهائجة والمضطربة يحتجزني خلفَه. لم أعد أريد لهذه الابنة أن تعيش، أتمنّى أن تموت، أن نموت معًا، أن ينتهي كل هذا الأذى..

telegram @yasmeenbook

الساعة الواحدة ظهرًا وسبع دقائق، دخل جسدي في نوبة يباسٍ كلّيّ، عقلي ولحمي يتخشّبان، في داخلي تحدثُ حالةُ تسليمٍ واستلامٍ بين الوعي واللّاوعي. خطٌّ رماديٌّ بعيدٌ في الأفق يشتبكُ بزاوية عيني اليسرى، سلسلةُ جبالٍ متّصلة في تعرّجاتٍ عنيفة. على جانب الطريق غرفٌ قديمةٌ يغوص نصفُها في الرمال، دوائرُ وخطرفات وكائناتٌ تظهر وتختفي في رأسي، العقلُ يخلق هلاوسه وكائناته المتوحّشة عندما يعصي الجسدُ أوامره. لا أذكر آخرَ مرّةٍ سهرتُ فيها إلى مثل هذه الساعات المتّصلة. واصلتُ التركيزَ الهادئ على طريقي، تفصلني عن نجران ساعات، الشمسُ متأجّجةٌ والسماءُ صافيةٌ والطريقُ واضحة. شدّة الوضوح تجعل الحياة مخيفةً وصريحةً أكثر، ثمّة قطعةٌ ناقصةٌ وغامضةٌ دومًا في هذه الحياة، وعلينا البحث عنها بشرط ألّا نعثُر عليها.

على مقدّمة سيّارتِي أتوهّمُ وجهَ عجوزٍ شيطانيّةٍ لها جسدُ حرباء، تنقلُ أطرافَها بصعوبةٍ على كبوت السيّارة. تقترب ملتصقةً بالزجاج الأماميّ، ثمّ تختفي، هلاوس بصريّةٌ تتمثّلُ أمامي بكامل

telegram @yasmeenbook

تفاصيلها، هذه المخلوقة هي الصورة التي اختزنَها عقلي للجنّيّة «أمّ الصبيان»، نسمع منذ صغرنَا الأمّهات يهتفنَ لهذه الكائنات أن تخطفَ أولادهنّ، مرّةً يدعون «أمّ العريان» وأخرى لـ«أمّ الصبيان» وأحيانًا يصرخنَ: «جاتك نهوم» عندما يغضبنَ من عائلاتهنّ أو أولادهنّ.

للجنّ والأحجار والنباتات والحيوانات قُواها المجهولةُ في حياتنا. ما لم أتوقّعْه أنَّ لأمّ الصبيان حضورَها الدينيّ. فاجَأني إيمان الفقهاء بأنّها من ألدِّ أعداء البشريّة، وهي أيضًا قابلت النبيَّ سليمان بن داود. كنت قد سمعتُ قصّةَ العنقاء والبومة التي اصطفّت معها، والتحدّي الذي وقع بينهما وبين النبيّ سليمان، وانتهى بهروب البومة إلى الظلام ونَفْي العنقاء في البحار البعيدة خارجَ هذا العالم.

تعرّفتُ على أمّ الصبيان عندما قابلت الفقيه «عزّي»، كان ذلك اللقاء بعد ستّة أشهر من الوساطات، أعطاني خلالَها مواعيدَ عديدةً وصلتُ فيها إلى بابِه وطرقتُه، ولم يفتح. كنتُ قد عرفت عنه هذه العادة، لا أدري إن كانت خوفًا من الصحوةِ وهيئة الأمر بالمعروف التي تنتظر أيّ تهمةٍ لفقيهٍ إسماعيليٍّ حتّى تحكم عليه بالسحر والشعوذة وتقطع عنقه، أم هي حساباتٌ فلكيّةٌ، أو قد تكون طريقةَ تسويقٍ وربّما هي جزءٌ من العلاج.

بمجرّد الدخول إلى بيت ذلك الفقيه، فقدتُ الاتّجاهات. شعرتُ أنّ أرضَ البيت تدور على نفسها ببطءٍ شديد. استقبلني في

telegram @yasmeenbook

مساء ليلةٍ هادئةٍ وأجلسَني في غرفةٍ صغيرةٍ منفردةٍ عن البيت. قام بثوبه القطنيّ الناصع البياض وغترة بيضاء يعصبها على رأسه وبوجهٍ حسن الملامح مُريح للنظر. أحضر القهوة والشاي والتمر، وقدّم لي فنجان قهوة، ابتسم ومسحَ على لحيته الوسيمة وسألَني عن اسمي واسم أمّي وزوجتي وأمّها. أخبرته بذلك، وهو يلتقط من سجّادة صلاته ورقاتِ ريحانٍ فيها ثمرٌ أبيضُ تُخالطه زُرقة، كان يبرمها بأصابعه ويشمّها ويغلق عينَيه، رائحتُها تزيد انتشارًا وتغمر الغرفة، شفتاه تلفظان أحرفًا صامتةً ومتباعدة. وضعتُ فنجاني، وشعرتُ بالبيت يدور أسرع، كان يقعد مستوفزًا على الأرض وزاويتَا ركبتَيه مرتفعتَان إلى أعلى. ثمّ فردَهُما وعاد إلى طبيعته، وابتسم مرّةً أخرى وهو يقول لي: اشرب قهوتك. ثمّ تحدّث عن «أمّ الصبيان» ولقائها بالنبيّ سليمان بن داود بكلامٍ طويلٍ وعجيب لا أتذكّره كلّه:

«أمّ الصبيان من الأشخاص المعكوسين والمنكوسين، وقد التقتَ بنبيّ الله سليمان بن داود وهم لا يشخصون إلّا للأنبياء فيناطقونَهم ويحاورونهم. فقال لها سليمان عليه السلام: من أيّ الشياطين أنت؟ وما عملك؟ فقالت: أنا أبروم ابنة الدحن ابنة العقيق بنت ملياط بنت الشيطان بنت إلهام بن لاهيم بن فارس بن إبليس. قال لها: ما عملك يا أمّ الصبيان؟ فقالت: أمحق الرجال والنساء فأبدّلهم وأشوّه خلقهم. آتي المرأةَ الشابّة وقد تجمّل شبابُها وكثرَ خُطّابُها فأردّ الخاطب عنها وأعقدُ الذيل بالذيل وأبشّر الخاطب بالويل. يا نبيّ الله إنّي أعترض للمرأة في حملها وفي نفاسها، فمنهنّ من أفجعُها في

telegram @yasmeenbook

منامها ومنهنّ من أفزعها وأُسهرها في ليلها ونهارها، ومنهنّ مَن أسكن في بيت ولدها من بطنها فأُخرج الولد من غير تمام، ماءً ودمًا عبيطًا ولحمًا رقيقًا فأنقض عليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف فأبتلعه ابتلاعًا فأقطع منها الحمل في والدٍ من غير كبرٍ ولا هرم... يا نبيَّ الله إنّي آتي إلى الإناء المغطّى الذي لم يُذكَر اسمُ الله عليه فأنفث فيه نفثةً يأخذ منه الصداعُ وضرب الأسنان والهذيان والحمّى والمليلة والثالث والرابع والمساس والغادية والبلغم واليبوسة وإرواح المفاصل... يا نبيَّ الله إنّي آخذ بني آدم ألوانًا ألوانًا فأخور كما يخور الثور وأهدر كالجمل وأزأر كالنمر وأزدك كالأسد وأصيح كالديك وأنعق كالغراب وأصفِّرُ كالثعبان وأنبح كالكلاب وأعوي كالذئاب... أحتال للرجل في عمله وللمرأة في خدرها فأبهتهما وللغنم في سروحها وعند رواحها وللثور في مضمده وللجمل في قطاره وللفرس في مذوده.. أضرب اللحم باللحم والدم بالدم والعظم بالعظم.. أترك الصدور جافيةً والقلوبَ قاسيةً والنفوسَ عن المعاش لاهية....»

أخرج «محوًا» من سجّادته، ورقتَين مطويّتَين طيّاتٍ كثيرةً تنتهي بقطعةٍ صغيرةٍ مستطيلةٍ في جوفها حِبْرٌ كثيف، إحداهما للزوج والأخرى للزوجة، نغمسها في كوب ماءٍ ونشرب ونمتسح على صدورنا منها، وأعطاني «حرزَين» مغلّفَين بجلدٍ مدبوغٍ ومخيط برأس مثلّثٍ وبداخله حشوةٌ روحيّةٌ لا اعرف عنها شيئًا، يجب أن يرقد كلّ حرزٍ بداخل وسائدنا التي ننام عليها، وأخيرًا أمرني بشراء

telegram @yasmeenbook

تيس «يأكل في سواد ويدعس في سواد»، ثمّ الدوران بالتيس اثنتي عشرة دورةً حول زوجتي وقراءة الفاتحة مع كلّ دورةٍ ودعاء بكلمات بليغة ومؤثّرة: «اللهمّ إنّي أسألك يا من هو .. يا من لا يعلم ما هو إلّا هو .. يا مَن هو كما هو .. أتوسّل إليك بالعقل الأوّل وبتاليه المنبعث منه الذين جعلتهما سببًا لكون الأشياء وعلّةً لوجودها.. وبالسبعة العقول التي تليه وبعاشرهم القائم مقام الأوّل لمن في أُفقه والحائز بموادّه الجارية ولحظاته إليه السارية شرف سبقه وبمَن في ضمن كلّ واحد من القوى الروحانيّة والأشباح القدسانيّة ألّا تذرني فردًا وأنتَ خير الوارثين».

غابَ الفقيه دقيقتَين، فوضعتُ ثلاثة آلاف ريالٍ بين طيّات سجّادته التي أخرج منها رياحينَه ومحوه وحروزه. ثمّ أخذني إلى الخارج، وعادت الاتّجاهات تستعيد أماكنها الصحيحة.

سألتُ في سوق الأغنام عن تيسٍ بقوائم سوداء وخطمٍ أسود، ودلَّني أكثرُ من شخصٍ في وقتٍ واحدٍ على زريبةٍ كبيرةٍ في وسط السوق، يمتلكها «دبوان» الذي يحتكر نخبةَ تيوس السوق في زرائبه. كان يحوز التيوسَ السوداء في مكانٍ خاصٍّ يبدو أكثرَ رفاهية. أعطاني أحدها بسعرٍ أغلى من المعتاد، حاولتُ الاعتراضَ، وكان يعرف أنّي أصرف وصفةَ علاجٍ لا توجدُ عند غيره. هذه وصفةٌ يفوق الطلبُ عليها العرضَ في السوق، ويعرف دبوان أنّه سيبيعها إلى غيري خلال نصف ساعة. حملتُ التيس الأسودَ بشعره القصير اللّامع وأذنَيه الطويلتَين، جلبتُه إلى البيت، وكنتُ حريصًا

telegram @yasmeenbook

على أن ننهي الأمر بهدوء. وفي ممرٍّ مهملٍ يستخدم للتنّور وتخزين الحطب، جعلتْ أروى تقفُ وبدأتُ أدور بالتيس وأقرأ ما تلاه عليّ الفقيه. فضحَني التيسُ بصوته الحادّ والرغاء، ونسيتُ كم دورةً أنهيتُ وفي أيّ اتّجاهٍ دُرت. حرنَ التيسُ وبدأتُ أجرّه جرًّا وزادَ من الضجيج وسمعَ أهلُ البيت والحيّ وربّما العالم كلّه صوتَه. أنهينا الدوران وضحكنَا ضحكةً غريبةً فيها الكثير من رثاء النفس. ثمّ وجّهتُه إلى القِبلة وكبّرتُ عليه وذبحته.

لم تتأثّر أمّ الصبيان بكلّ المضادّات الدينيّة التي وصفَها لنَا الفقيه. الشيءُ الوحيد الذي فعلَتْه أمّ الصبيان هو أنّها جعلت جيبَه ينتفخ ومرتَبَتَه الدينيّة تعلو. كنتُ شاهدتُ فيلمًا وثائقيًّا طبّيًّا عن العلاج بالبلاسيبو. يوسوسُ بعضُ البشر بأنّهم مرضى وفي حاجةٍ إلى العلاج، هناك أعراضٌ لهذه الحالة يدرسُها الأطبّاء كما يدرسون أعراضَ الزائدة الدوديّة. إذا توفّرت أغلب تلك الأعراض صرفَ الطبيبُ لمريضه حُبوبًا مصنوعةً من النشاء ومصمّمةً على شكل الأدوية غير أنّها لا تحوي أيَّ دواء. فيشعرون بالشفاء بعد ذلك اللّادواء. يجاريهم الطبّ في أوهامهم ويتغلّب عليها. البعض الآخر يصلُ به الوهم إلى أنّه في حاجةٍ إلى جراحةٍ في مكانٍ مّا من جسمه، وبدلًا من أن يخسر الطبّ مريضًا أو زبونًا أو يفقد مركزَه أمام أنواع التطبيب الشعبيّة الأخرى، يفتحون بطنَ المريض مع تخديرٍ كاملٍ ويشقّون طبقات جلده ثمّ يخيطونها دون أيّ إصلاحاتٍ بالداخل. أطلقوا عليه اسم «بلاسيبو جراحي»، أمّا في غرفة عمليّات الفقيه

telegram @yasmeenbook

فتلعب أمّ الصبيان دور «البلاسيبو الدينيّ». الطبّ والدين يتّفقان على أنّ الوهم طفلٌ مدلّلٌ يجب إلهاؤه..

ها هي أمّ الصبيان تتجوّل في عقلي وأمامي الآن. ربّما نسيتُ دورةً أو اثنتَين من الاثنتي عشرة. توقّفت ونزلتُ أدور حول سيّارتي، وقرأتُ ما استجمعته من ذلك الدعاء. ركبتُ، واستكملتُ أيضًا ضحكةَ رثاءِ النفس. تحمل هذه الضحكة مشاعرَ قتيلةً مثل باص يحمل سُجنَاء إلى ساحة الإعدام.

وقفتُ في عرض الصحراء، هَبوب رماديّة تزحف نحوي، نظرتُ إلى وجهي في مرآةِ السيّارة، فرأيتُ تائهًا يسألُ تائهًا آخرَ عن الطريق. تأمّلتُ المرآة متمهّلًا، كانت عيناياَ مثلَ غُرفِ توقيفٍ تكتظّ بالمتّهمين، وعلى جبيني تنتصبُ هزائمي المصابةُ بجنون العظمة، وملامحي مدرج جماهير يتراشقون عُلب الكلمات البذيئة، وفي فمي قُبلةٌ لم تجد مشنقةً آمنة للموت.

عندما أكون وحيدًا أنقسم إلى اثنين تحدُث بينهما معاركُ صغيرة، ينتبذ أحدُهما في أماكن وعرة وغير مأهولة في ذاتي، والآخر يقضي الوقت في البحث عنه، يبدو أنّ كليهما ضلّا طريق العودة، أو اتّفقا على أن يهرب كلٌّ منهما في اتّجاه.

.. تقف سيّارتي خارجَ الطريق، وجوّالي خارجَ التغطية. أسمع صوت صدري يتهشّمُ مع كلّ زفرة. وخزٌ في حلقي، واهتزازاتٌ في زوايا فمي. والدموعُ تغمر عينيّ المجدبتَين. انهارت محاولتي

telegram @yasmeenbook

الضعيفة للتماسك، ذرفتُ دمعتَين ثقيلتَين، بكيتُ بكلّ عروقي ولحمي ودمي وشحمي، حتّى عقلي وعظامي تبكي. تلطّخَ وجهي وأنفي وسالَ لعابٌ أبيض من فمي. اجتمعت كلُّ المآتم التي كنتُ أُقيمها لموتى لم يولدوا بعد، وحفرتُ قبرًا لهذه المولودة التي لم تَعِشْ بعد.

جميعُنا طرائد للموت في لعبة تسليةٍ كونيّة، أتمنّى ألّا تكون ابنتي على قائمة طرائده هذه اليوم. عرفتُ معنى الموت في طفولتي، كان جدِّي هو أوّلَ ميّتٍ مشيتُ في جنازته، بعد أن كان يحتلّ في خيالي الطفوليّ مكانةَ إلهٍ لا يموت، كنت إذا قالوا لي: «ويلك من الله!» أتخيّله غاضبًا في وجهي ويقرع رأسي بعصاه. وإذا تحضّرتُ للمنام على ذلك الحصى المجموع من مسايل الأودية والشعاب والمرشوش بالماء مع مغيب الشمس خارجَ بيت الطين، كنت أعدُّ النجوم الخافقَة في هدأة الليل وأرى وجهَه مضيئًا في السماء يحذّرني من عدّ النجوم حتّى لا تنبت بعددها ثآليل في وجهي عند الصباح.

أتذكّر صوت جدّي وهو يبشّ أبناءه من مراقدهم وقتَ الشَّفع بعد أن هبّت النود، وهي ريحٌ منخفضةٌ وفوضويّةٌ تعصف بالزرع والنخل فيسمع جدّي وقعَ تمرات نخله على الأرض، وإذا لم يجمعوها قبل خروج الأغنام للرعيِ مبكّرًا مع رعاتها فستأكلها في طريقِها.

كنت صبيًّا يمسكني بيدٍ وعصاه الملساء والصلبة تملأ قبضةَ

telegram @yasmeenbook

اليد الأخرى. سرتُ معه مسافاتٍ طويلةً في شوارع طينيّةٍ ضيّقةٍ ومتعرّجة، مشينَا في ظلّ النخل نجمع التمرَ المتساقط تحته، مررنا على «مصنع اليهوديّ»، حُجرة طينٍ خربة كانت ورشةَ حدادةٍ يديرها أحدُ اليهود، ثمّ انعطفنا حول «بير رضيّة» وسط قطعة أرضٍ يانعة، كان فيها ابن أخت جدِّي، صاحَ له جدِّي وهو يعزق كتلَ الطين المحروثة: «قال أبو زيد الهلالي: اجعل سواقيك حُدّرًا»، تبادلا تحايا الصباح بجدّيّةٍ ومضينا، دخلنَا أرضَه من مكانٍ مباغتٍ اختاره جَدِّي كما يفعل يوميًّا، ألقى نظرةً واسعةً على مزرعته يجمع الملاحظات، وصرخ بكلمةٍ لم أفهمها. فاجتمع عمّالُه الذين هم أبناؤه أمامَه، سأل عن غياب أحدهم وأخبروه بأنّه على موعد مع «حريزي» يكيل له الحَبَّ الذي سيُزرَع هذا الموسم. هزّ رأسه، وتحسّر بأنّ ابنه مغفّل و«حريزي» جشع. أعطاهم جدولَ النجوم ومواعيدَ ذرو الأرض في كبسولات شعريّة: «إذا بدَت الثريا عشاء، أذر ياللي ماعندك عشا، وفك الشاء على الشاء»، فضبحت إحدى الشياه من الزريبة، فضحك جدّي قائلًا لأبنائه.. «حتّى البهايم فهمت وانتو ما تفهمون»..

ذهبنا مشيًا باتّجاه السوق، قطعنَا طرفَ الوادي ومررنا بجيفةِ نعجة، انحرفنا قليلًا نحو شجرةٍ كبيرةٍ مهيبةِ المنظر وتتدلّى منها خيوطٌ كثيرة، تحت السدرة «العِلب» التي تقع على حدبةٍ صغيرةٍ بين الوادي وبستانٍ لأحد أصدقاء جدِّي. يقعد ذلك الرجل مثل الربّ يراقب عالمَه الصغير وأملاكَه. لعبتُ حولهما، ورفعتُ رأسي

telegram @yasmeenbook

إلى أعلى أراوغ التماعات الشمس بين فراغات أوراق الشجرة. يدور الهواء بين أوراق السدر الصغيرة، فتصدر صوتًا كالتسبيح والتهليل. فاحتْ رائحةُ القهوة وسحَبها من طرف جمراتٍ قليلة تبدو خامدة، صبَّ لجدي فنجانًا ورأيتُهما يرفعان فنجانَيهما قليلًا ويتمتمان: «ذكر النبيّ فضيلة يداوي القلوب المريضة شفيعنا محمّد اللهم صلِّ عليه وسلّم». ثمّ تناولَا الرشفة الأولى وبدآ يتنقّلان في الحديث من شأنٍ إلى آخر كأنّهما في اجتماعٍ مجدول بدقّة. رأيت جدّي وصديقَه قد نصبا ظهريهما، وجدِّي يرفع فنجان قهوته عاليًا هذه المرّة، ويقسم به لصديقه فيقول: «على عَرَق نبِيٍّ»، كان العرق يلمع على جبهتَيهما، ولديهما اعتقادٌ أنّ شجرة البُنّ كانت بدايتُها قطرةً من عرق نبيّ. كنت حولهما أبحث في الأرض وألتقط النبق «الدوم» وألتهمه. اخترقت أخمص قدمي شوكةٌ برأسٍ أبيض وغاصت سنتمرات، فنزعَها جدِّي وصرخَ في وجهي، ثمّ حملني على كتفه. أُلغي الذهاب إلى السوق وعادَ بي إلى البيت راكبًا على رقبته ورجلايَ تتدليان على صدره وتلامسان رأسَ «جنبيته» التي تطوّق حقوه. كان يغنّي ويطلب منّي الترديد معه، أشعر بكتفه تهتزّ ضحكًا من الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها في الكلمات واللحن. عرفتُ لاحقًا أنّه يمرّ ببيت امرأة تزوّجَها أشهرًا قليلةً وطلّقَها بعد خلافٍ نشبَ بينه وبين أخيها على أوثانٍ كانت تفصل أرضيهما. كان يحبّ «وجناء» المشهورة باسم «الشاميّة»، والجميع يعرفون بمن فيهم زوجاته الثلاث ومطلّقاته اللّاتي لا أذكر عددهنّ. يرفع صوتَه

telegram @yasmeenbook

بالغناء عند وصوله إلى شجرتي الرمّان في قِبليّ بيتها الطينيّ، يمنحها وقتَ الوصول إلى مِكحلتها ودعج عينَيها الذاويتين، فتخرج أمامَه بأيّ حجّةٍ حاملةً خصفة حَبّ أو شكوة مخيض، وهو يرتّب صوتَه ويردّد بلحن عاشقٍ متلهّف:

ياغرس رمّـانة عدّيت من ظلّه عدّيـت من ظلّتـه للشّمس تصلاني
والله والله مالي شِـفّ بالدلّـه لولا حديثٍ معك ما جيت لك عاني

بعد أشهرٍ قليلةٍ سقطَ طريحَ الفراش، مصابًا بالوباء الكبديّ. كانوا يحضرونه ويتحلّقون حولَه ليلًا ونهارًا في مجلس طينٍ وهو مسجًّى على فراشه.

ثمّ رحلَ جدِّي في حمأة الضحى. كانت هناك حدأةٌ تحوم في الأعلى، والنعشُ يسير محمولًا على أكتاف الرجال، وسط ابتهالاتٍ مهيبةٍ يردّدونها بتقاطيعَ عروضيّةٍ متناغمةٍ مع وقع الأقدام الثقيلة على الأرض: «لا..إله.. إلَّا.. الله» فتُردّد الأصوات من مؤخّرة النعش: «ما..يدوم.. إلَّا.. الله». عبروا شارعًا ضيّقًا ملتويًا في زاويته نخلةٌ عوجاء، وثمّة نساءٌ ينظرن من شقوق النوافذ، وأطفالٌ يقفون هائبين بجانب الجدار. دخلوا به إلى المقبرة الغبراء وغاصتْ أرجلُهم في التراب الخفيف. أنزلوه في ظلّ شجرة «سَلَم» يابسةٍ مليئةٍ بالأشواك. لا شيء أخضرَ في تلك المقبرة الكبيرة، هناك أشجار «مرخْ» شاحبةٌ ومصفرّة، وشجرة «أراك» تعترش ركنًا بعيدًا، وعددٌ يتجاوز الخمسين رجلًا يتحلّقون على القبر المفتوح.

telegram @yasmeenbook

أزاحوا النعشَ وأنزلوه إلى الداخل، كتلة لحمٍ يحرّكونَها بصعوبة، ثبّتُوه في اللحد باتّجاه القبلة وأسندوه بالترابِ. كان أبي وأحدُ أعمامي يتدبّران أمرَ جثَّتِه في القبر. مدّ أبي يده، فتناولوه، ورفعُوه من معصمه. وبقي عمّي الذي استوى إلى القبلة، ثمّ وضعَ راحةَ كفّه اليمنى على أذنه، وأذّن بالأذان الكبير في صوتٍ خفيضٍ وصمتٍ مهيبٍ من حوله. قبض كلُّ المشيّعين قبضتَين من تراب القبر، وتلَا الفقيهُ تمتماته غير المسموعة: «تصديقًا لوعدك وإيمانًا بـــــبعثك.. إلخ... الفاااتحة». مسحَ بعدَها وجهَه ولحيتَه، وتساقط التراب الرطب على كفنه الأبيض. ثمّ قبضُوا قبضةً ثانيةً وثالثةً بعد ما ردّد الفقيه ذلك الدعاء. نهض الفقيه وانسحبَ من على فوهة القبر وهو يقول بصوت عالٍ: «أفسحوووه». تصاعدَ اللغطُ بالدعاء والبكاء المكتوم مختلطًا بأصواتِ المجارف، وبسرعةٍ أهالُوا الترابَ فوقه. فتصاعدت الأغبرة وعَلِقت ذرّاتُ الغبار بعرق جباههم وفي رموشهم وحواجبهم. ثمّ أغلقُوا القبرَ وجلبُوا نصبًا من حجارة الجبال، وضعُوا الحجرين الأكبر حجمًا ولهما رؤوسٌ مستدقّة على الجانبين الشرقيّ والغربيّ للقبر، وصلوهما بأحجارٍ متقاربةِ الأشكال والأحجام، ثمّ رشُّوا حوضَ القبر بالماء، خرجُوا حثيثِي الخُطى وتركُوه وحيدًا فوقَ قبره حومةَ ماءٍ وطين.

الموتُ في زمن جدِّي وجدّتي كانَ مجرّدَ انتقالٍ جسديّ، وتبقَى أرواحُهم وروائحُهم وأصواتهم ملتصقةً بالحياة حولهم، تفتقدهم طرقُهم التي تحفظ خطواتهم، تحنّ إليهم صباحاتهم وبيوتُهم

telegram @yasmeenbook

البسيطة، وتشفق لوجودهم حيواناتُهم وعائلاتهم التي يقسُون عليها.

كانت في كلّ قريةٍ امرأةٌ «تُسفِّل» تسري روحها ليلًا إلى مكانٍ أسفل هذا العالم تُلاقي فيه الموتى، ترى بعضهم في بياضٍ وأحوالٍ فردوسيّة، والبعض الآخر يحمل صخرةً ثقيلة ويبعث معها وصايا لأهله تخلّصه من عذابه، وتحدث هذه الرسائل استنفارًا لكل أقارب الميت.

أذكر امرأة تدعى «نقيحة» جاءت تسعى إلى جدَّتي التي لا تعرفها ولم ترها من قبل، وأخبرتها بأنّها التقت أمّها مع الموتى وكانت مُحتَجزةً بين صخرتين. ترجّتها أن تخبر ابنتها بأنّها مدينة بخمسة «فرانصي» لامرأةٍ اسمها «قُذلة»، فجرى البحث عن قُذلة بين كلّ الناس ولم يظفر أحدٌ بمعلومة عنها. وبعد عدّة أشهر عُرف أنّهما تجاورتا في ملجأ أثناء غزو الإمام الزيدي لنجران، ثمّ افترقتا، ثمّ غيّبهما الموت، وكان الحلّ الوحيد أن يُستفتى الفقيه، فأخذ الفرانصة الخمسة وتدبّر الأمر..

في عالمنا اليوم فقدَ الموتُ حوَاسَّه، تحوّل مثل قارئٍ إلكترونيٍّ في سوبر ماركت، يخرج الميّت من عالمه كما لو أنّه نزيلُ فندقٍ يجري (checkout) بينما خدمة (room service) تطمَس أيّ أثرٍ خلفه.

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

الساعة الثالثة عصرًا.. ذُبابٌ يحومُ حولَ وجهي، ويقفُ بين التقاء شفتيَّ الضامرتَين، يطير مخترقًا الفراغَ بين عينيَّ وزجاجِ نظارتي، أهشّه فيعود من خلفي، ويتمسّكُ برقبتي. أشعرُ بوخز أطرافه وهي تنغرس في مسامات جلدي. فتحتُ نافذة السيّارة ليخرج الذباب، فدخلت الصحراءُ بشموسها المتراكمة ورياحها الحارقة. تدفّقَ منها تيّارُ هواءٍ يشوي الجلد وحثَا برماله في وجهي. أغلقتُ الزجاجَ، وعلى الطريق المعاكس لوحةٌ تشير إلى قرية الفاو الأثريّة، مملكة كندة القديمة، التي غادرها الملك الضلّيل بحثًا عن استعادة ملكه، عاد بلا مُلكٍ وبمعادلةٍ شعريّةٍ مختلفة عن الخسائر والمفقودات في الحياة:

«وقد طوّفت في الآفاق حتّى* رضيت من الغنيمة بالإياب».

في أوبتي هذه بعد تطوافٍ دامَ خمسَ عشرة سنة، لم أنجح في استعادة كرسيّ الأبوّة المسلوب. لكن من يدري، ربّما تكون الرحلة من أجل الشيء أبلغَ من إصابته. تقاذفتْنا الوعود والعيادات والآمال الكاذبة من عامٍ إلى آخر. تركنا كلَّ ما في أيدينا من حياةٍ لمصلحة

telegram @yasmeenbook

طفلٍ عنيدٍ لا يريد أن يأتي. ثمّة أشياء ثقيلةٌ بلغتْ أبعدَ من نهايتها، لم نعثرْ لها على بدايةٍ ولم نبدأها نحن. وقد حان الوقت للإطاحة بكلّ ما ينهكنا، ورَفع العلم الأبيض في هذه المعركة الأبويّة الخاسرة.

.. خفق نبض الجوال من جديد، سرت في عروقه دماء الشبكة، طنين رسائل متواصل وكثيف، دفع إليَّ بأرقام مَن سألوا عنّي عندما كنت منقطعًا. وقد كان مدير المستشفى أحدَهم. فبدأت به. طمأنني بأنّ الموافَقة على الإخلاء ستُنجَز خلال ساعة، فبادرتُه باعتذارٍ عن الشتائم، فبادلني باعتذارٍ مفعمٍ بالشهامة. بقيّة الأرقام كانت للأهل وأصدقاء المقهى، أولئك الآباء الجُدد الحائرين في تربية أبنائهم.

أعرف أنّي قد لا أكون الآن بحالٍ أفضل لو كان لي أبناء، وأعرف أنّ الأبوّة ذاتَها تحوّلتْ إلى مرضٍ عاطفيّ. يتعاملُ الآباء في هذا الزمن مع أبنائهم كما يتعاملون مع جرحٍ طريٍّ أو نَبتة ظلّ. لذَا لم تؤلمني عبارةُ صديقي التي يردّدها دومًا بعفويّة: «حظّك ما عندك عيال». إنّه أذكى أصدقائي وأكثرهم اتّزانًا في رأيه. مقَتَه بعض الأصدقاء واعتذروا لي عن كلامه، بينما عندي يقينٌ تامّ بأنّ كلامَه محسوبٌ على المحبّة والتحذير من صديقٍ إلى آخر ألَّا يقعَ في الفخّ نفسه، ولم يقصد الإساءةَ أو ممارسة الأنانيّة بأيّ شكل.

ذات ليلةٍ في المقهى، هدأَ المكانُ، فأطلتُ وإيّاهُ السهرَ بعد الأصدقاء. كان الجوّ مشجّعًا على البوح بأشياءَ مؤلمة. صارحني، وتحدّث عن ابنه الذي يبلغ تسع سنوات، لديه علاماتُ أنوثةٍ

telegram @yasmeenbook

صارخة في سلوكه وصوته وجسده. تفجّر يحكي عن محاولات عَرضه على الأطبّاء، يريد علاجًا دون أن يشعر ابنُه بأيّ مرارة، يريد أن يقطع شجرةَ الأنوثة النابتة في ابنه دون استخدام فأس. يجده دائمًا أمام مرآة أمّه يضع الروج على شفتَيه، وأحيانًا ينشرُ الملابس النسائيّة على السرير، ولم يضربه أو يصرخ فيه بتاتًا، بل يكتفي بتأنيبٍ لطيفٍ كي لا يؤذيه نفسيًّا.

أمّا الشخص الآخر فكان زميلًا سابقًا في صفوف الدراسة، أخذَه الاكتئاب إلى عوالم بعيدةٍ ومعزولة، فلم يكن يُرى إلّا ما ندر، التقاني عند بقالة صغيرةٍ ومعه ابنتاه، وسألني عن أحوالي وكم من الأبناء لديّ؟ فلمّا أجبته، تأمّلني قليلًا ونظر إلى ابنتَيه، ثمّ قال وهو يركب سيّارته «يعني تقدر تنتحر في أيّ وقت»...

صديقٌ آخر في المقهى كان يدفعني إلى خوض معركته بالوكالة، انفعل عليَّ بغضب أكثر من مرّةٍ يطلب منّي أن أتزوّج. لم أتقبّل ذلك الأسلوب الفجَّ في المرّة الأولى. فلمّا أعدتُ التفكير في كلامه وردودي عليه، تذكّرتُ أنّ زوجتَه التي يحبّها تعذّبُه نفسيًّا، تختلق من صغائر الأمور معركةً تستمتعُ فيها بلذّة الانتصار وخضوع هذا الزوج. كان يقول لي إنّه يكاد يُصابُ بأزمةٍ قلبيّةٍ إذا عاد إلى البيت ورأى حقيبتَها مفتوحة، تهدّده بالذهاب إلى أهلها وحرمانه منها، تفعل ذلك أحيانًا لتشاهد في عينَيه نظرةَ العاشق المفجوع، وربّما بتواطؤٍ منه يحبّ أن يلعب ذلك الدور، حتّى بلغَ الأمرُ عقدةً لا يستطيع الفكاك منها.

telegram @yasmeenbook

لمّا أعدتُ ما جرى بيننا، تذكّرتُ فلتةً صغيرةً بين ضجيجٍ كثير، خرجَ عقله اللّاواعي وهلةً، وقال بحسم: «اكسر رأسها وتزوّج»، كانت هذه الجملةُ المفتاحَ الضائعَ لرغبات صديقي المخذولة. اقتفيتُ أثرَها مثل بدويٍّ يبحث عن ضَالَّته، تذكّرت نظرته المنكسرة وطفلُه المدلّلُ يكلّمه أمامي بوقاحة، أخذ الأبناءُ طريقة أمّهم في التعامل معه، تلك المرأة حبسته إلى الأبد في الرجل الضعيف الذي بداخله.

بل تعدّت محاولاتُه الدفعَ بي إلى الزواج، حتّى بدأ يمرّر لي أسماء نساءٍ جميلاتٍ يصفهنّ بحُبّ، أغلبهنّ مطلّقاتٌ لكلّ واحدةٍ منهنّ قصّةٌ ملائكيّةٌ ملفّقةٌ وحزينةٌ مع زوجٍ ظالمٍ ومتوحّش. أعرف أنّه يرى فيَّ حبلَ غسيلٍ شاغرًا لكَوْمَة خيباته المتّسخة، يغلّف إلحاحَه بمبرّر أنّ «القِران» هو العلاج الوحيد للإنجاب.

اقتربت كثيرًا من القناعة بهذا الحلّ. كان مدهشًا أن تعطي هذه الوصفةُ الشعبيّة نتائجَ مضمونةً في أغلب الأوقات، عرفت أكثر من شخصٍ بذَلَ كلَّ ما يستطيع من أجل الأبناء. وبمجرّد إدخال قرينةٍ أخرى إلى زوجته، تبدآن سباقًا على الإنجاب تفوزُ فيه الاثنتان. عجزت عن فهم أمر المرأة وأسرارها الغريبة مثلما استسلَمَ سيجموند فرويد أمامَها ورحل قبل أن يعرف إجابةً عن سؤاله: «ماذا تريد المرأة؟»..

في رحلتي العلاجيّة، بدأتُ أضعُ الطبَّ في نزالٍ مع أنواع العلاج الأخرى، سألت أحدَ الأطبّاء عن تفسيرٍ للقِران، كان ذلك

telegram @yasmeenbook

الطبيبُ المصريُّ يحبّ أن يشرح بأداءٍ مسرحي..: «بص يا سيدي.. ده -ويشير إلى رأسه- في وسطيه كده غُدّة متعلّقة زي الخفاش.. بتفرز البتاعة دي هرمون -اسم لاتيني طويل- وبتسيبه يروح يشوف شغله.. الستّ بقى لمّا يتأخّر الحمل بتقوم تقلق وتفكّر على طول في الموضوع.. الغدّة تدوس على نفسها وتزوّد الهرمون حبّتين.. وهو بيروح هناك للبويضات يبني سور سميك عليها مابيسمحش للحيوانات المنويّة بالدخول..لمّا الراقل يتجوّز بوحدة تانية تنسى الخلفة وبتفكّر في المصيبة السوداء اللي هي فيها.. تقوم الغدّة ماخدة راحتها وبتشتغل كويس وتحمل..». أعجبني الأداء ولم أقتنع تمامًا، حتّى جرى أمامي ما أكّدَ روايةَ الطبيب المصريّ.

قدحت جارتنا «خامسة البيّاعة» شرارة الفكرة في نفسي، غير أنّ الحسم في هذا الأمر كان لكلمات «دحيدح» وعلامات وجهه وذراعي التي هزّها، هو ما جعلني أتّخذ القرار بالزواج من تلك المرأة. كنتُ أزوره مع أبي في دكّانه بسوق التمر، وهو شبكٌ حديديٌّ مثلّثُ السقف يغطّيه من الأعلى بخرقٍ وبطانيّاتٍ قديمة، ويجتمع عندَه الناسُ لسماع أحاديثه. في طرف المكان أكياسٌ ومحافن مليئة بالتمر الأبيض اليابس، يحفظ صورةَ أيّ شخصٍ من نظرةٍ ولا ينساه أبدًا، ولم يعرف أحدٌ دحيدح حزينًا، يقول إنّه جاءه في الحلم نورٌ ممتدٌّ إلى السماء ووقفَ فوق رأسِه يردّد: «خُذ شربةً من ماء الأحقاف ولنْ يحزنَ قلبُك بعدها أبدًا»، ذهب دحيدح إلى تلك الأنحاء بصحبة حضرميّ حكى له حلمه، ولم يذقْ حزنًا بعد ذلك.

telegram @yasmeenbook

لدى دحيدح كلّ أنساب الناس وأخبارُهم وقصص أجدادهم، ولا أحد يعرف عنه شيئًا سوى اسمه «دحيدح» ودكّانه في السوق ولازمته التي يقفّي بها كلَّ مقطعٍ من كلامه: «البيضاء لله»، لا أحدَ يعرف متى دخلَ هذا السوق، يقولون إنّه قديمٌ جدًّا هناك، وجميعُ مَن يعرفونَه يتّفقون أنّ شكلَه لم يتغيّر على مدى عشرات الأعوام. تتغيّر الحياةُ من حوله وهو يتحكّم في زمنه الخاصّ ويفرضه على كلّ شيء. بهرني حديثُه في طفولتي، وخرجتُ من دكّانه مندهشًا، حرّك خيالي بقصص الـ بوزيد الهلاليّ وبوصفه وإتقانه للمعارك وقصص الحُبّ التي خاضَها أبو زيد الهلاليّ وذياب بن غانم. كان يحكي ذلك الصباحَ البعيدَ قصّةَ هروب أبي زيد من سجن الزناتي خليفة بعد أن أحبّته ابنة الزناتي عليا. كان كلّ مَن في شبك دحيدح يستمعون بحماسٍ وهو يشدّ حبكته أكثر فأكثر حتّى يعلن النهاية التي تنكشف فيها عليا أمام أبيها ويهرب أبو زيد من زنزانته ويركب حصانه مبتعدًا عن الأعداء، ثمّ يختمها دحيدح بأن يرفع يده ويصرخ: «البيضاااء لله يبو زيد..»

في خريف التمر من كلّ عامٍ يزدحم السوق ويكثر الباعة والمتسوّقون، من بين فوضى السيّارات وأصوات المحرجين وبسطات مسقوفةٍ بجريد النخل، ميّزتُ دحيدح بحزام جنبيّته الأزرق المنقوش بخيوط فضيّة. تحدّثتُ معه قليلًا وسألني: «كم قد عليك من العيال؟»، فأجبتُه بأنّي لا أتكاثر وليس عندي أبناء، فأجاب معترضًا: «البيضاا لله!»، يقول تلك الكلمة بطرقٍ لا حدّ لها

telegram @yasmeenbook

ويمكنها أن توصل أيّ معنًى يريده. كان يجذب الأشياءَ إليه بسحرٍ غامض، فبينما كان يقنعني بالزواج من أخرى ويمنحني دروسًا عن قِصر الحياة، ويتحدّث عن أشخاصٍ يعرفهم تزوّجوا على زوجاتهم، لمحَ شخصًا يعرفُه، وصاح فيه بين ضجيج السوق: «قهيب!»، قال: هذا الذي أمامك تزوّج بعد عشر سنوات، وحبلت امرأتاه الاثنتان بعد شهر من زواجه الثاني، وكان قهيب واقفًا وطرفَا فمه تغطّيهما خطوطٌ صفراء من «الشمّة» التي تطفح فوقها. وبابتسامةٍ من ينتظر إجابةً مضحكةً رمى قهيب لدحيدح سؤالًا: «أنت ليه ما تتزوّج؟» فأشار دحيدح إلى مكان ذكورته أسفل «جنبيّته» وقال: «ماعاد الميت يفسِّي». مضى قهيب ضاحكًا بينما أمسكني دحيدح من كتفي وهزّهَا بقوّةٍ تكفي لإعادة ميّتٍ إلى الحياة، أحالَ نظري إلى دكّانه وكانت هناك حِصرة سعفٍ ممدودة، قال لي: «لا تبقى طول حياتك صميل على حصرة» وصوّب إصبعه نحو عصًا وحيدةٍ في منتصف الحِصرة، انتبهتُ لها ولتلك الوحدة الهائلة التي تعيشها، أفاقتْني هزّاته كتفي ومشهد الصميل على الحصرة وحيدًا، كان دحيدح لا يوجّه حديثه إلى الشخص أمامه، لقد احترف كيف يخاطب أعماقَهم ويصيبها.

تزوّجتُ بعد أربعة أشهر من لقائه، كانت صورته والموقف كلّه لا يفارقان خيالي، لمّحَ لي وقتَها أن لا شيء يقعُ مصادفة، وأنّ وقوع نظره على قهيب كان إشارةً أخرى لي. خطبتُ امرأةً مطلّقةً لا أعرف عنها أيّ شيءٍ سوى ما اتّفق الجميع عليه: أنّها قليلة الكلام ولها نظراتٌ ذكيّةٌ، وما وصفتها به جارةُ أمّي «يجفل بها في الخِليّ». كنت

telegram @yasmeenbook

قد أمضيتُ عشر سنواتٍ في زواجي الأوّل، وكان قراري صدمةً في حياة أروى. ذهبت إلى أهلها قبل زواجي بأسبوعٍ بعد أن فقدت كلّ المحاولات واستنفدت مخزونها من البكاء.

كان ذلك الزواج لجوءًا إلى الرياضيّات فحسب، هي امرأةٌ تبحث عن رجلٍ يحلّ معادلتَها العاطفيّة المعقّدة، وكنتُ أحتاج إلى جسد امرأةٍ يقبل التكاثر. في الأسبوع الأوّل من زواجي بنجوى، منحني جسدُها كلَّ اللذّات المختمرة والمعتّقة بداخله، كان جسدًا بكرم حاتم الطائيّ لضيوفه، ذلك الكرم الألوهي الغامض.

عبرت نجوى حياتي مثل شهابٍ تنسكب منه أنوارٌ ربّانيّة، ثمّ اختفت. لم تكن قليلة الكلام كما وصفوها، بل كانت حنجرتُها مقموعةً بقسوة. امرأةٌ بأقفالٍ كثيرةٍ غير مرئيّة، وكلّ مفاتيح هذه الأقفال ضاعت في طفولتها. تحوّلَ الكلامُ المقموعُ إلى لغةٍ بالعيون تقول كلَّ شيءٍ وتُخفي أيَّ شيء. رأيتُ وميضَ الأبديّة في عينَيها على السرير، وفي غفلاتي وشرودي كانت تستجوب ملامحي بنظراتها وأشعر بأسراري تتسرّب أمامي إليها. أمسكتُ بنظراتها أكثرَ من مرّةٍ تتجسّس على الصناديق المقفلة بداخلي. كانت لها بعينَيها قدرةٌ جعلتْني أقولُ وأفعل ما تريده. تنبّهتُ منذ الأيّام الأولى، وبدأتُ أشتهي لغةَ العيون وأتمرّن عليها، وربّما كانت تجرّني إلى ذلك بإرادتها، لأكتشف أنّ القمع بداخلي مركّب. في أيّامٍ قليلةٍ بادلتُها القليلَ من الكلام والابتسامات الصغيرة. وجدتُ أنَّ الكلام الذي أقوله بعينيَّ يختلف تمامًا عن الذي يمرّ باللسان. وبدأتُ بعينيّ أقرأ

telegram @yasmeenbook

ما لا يقال على الألسن. وكما كانت عيناها العسليّتان تقنعانني بكلّ شيء، اقتنعت أنّ الكلام شيطانيٌّ والسكوتَ شيطانيٌّ أيضًا.

لكن كانت هناك طرقٌ مكبّلةٌ فيما بيننا، شيءٌ مّا غير متّصلٍ في هذه العلاقة. كمحاولة التقاء بين بئرين مهجورتين، كان لا بد لكلّ منّا أن ينزل إلى أعماق الآخر وينقذ ذلك الغريق في الماء الآسن. تكاشفنا النوايا وتباسطنا الأرواح وفتحت لي متحف الحروق في روحها.

حدث ذلك في اليوم الثامن، خرجنَا في السيّارة نتمشّى على حوَافّ جبال نجران الكحليّة ونخترق مزارعَها وطرقاتها الملتوية. قالت إنّها تحبّ الصحراء، فاتّجهت إليها. ضحكت في الطريق وقلت لها إنّي تزوّجتها من أجل اختطافها في الخلاء. وحكيت لها عن جلستي القصيرة مع «خامسة البيّاعة»، وصلنا إلى مديدٍ مفتوحٍ على كلّ الجهات، صلّيْنا المغربَ وريحٌ نقيّةٌ تخترق صدرَيْنا مثل طيورٍ مسافرة، أشعلنَا نارًا صغيرةً، وجلسنا حولها في الظلام، أصوات فرقعات النار وهي تقضم الحطب اليابس، نافورة شرار تتطاير من ثقوب الأعواد، ولولة تتسلق أطراف النار بلهب أزرق ثم تهبط، أنفاس بَدْوٍ ظعنوا وتركوا بقايا روائحهم هنا، وصمت متبادل ما بيني وبين نجوى، أَغْدَرَ الأُفق وألقَتْ فراشةٌ بنفسها في النار، فهمست لنجوى: «تعرفين لماذا الفراشات تلقي بأنفسها في النار؟ تقول جدَّتي إنّهم أجبروها على الزواج من ذُباب. فلم تقبل ذلك المصير. ومنذ تلك الحادثة أصبحت الفراشات تلقي بأنفسها

telegram @yasmeenbook

في النار..» ثمّ كأنّي تنبّهت لشيء يجب إيضاحُه فاستدركت: «ولا يقاس علينا شرّ». بكت نجوى بدمعتَين كان بريقهما يظهر ويحتجبُ مع الضوء الشحيح. كان وجهها جميلًا وحزينًا مثل مدينةٍ تتعرّض للغزو عند الفجر. مسحت إحدى عينَيها، ووضعت يدَها على الأخرى، قالت إنّ قذاةً دخلت فيها. ثمّ ركبنا السيّارة صامتَين ومشينا باتّجاهٍ نهائيٍّ نحو الافتراق، كانت نجوى بجانبي كومةَ رماد. طلبتْ علبةَ الماء، وشعرتُ بشَربة الماء تنحدر بألمٍ وحرقةٍ إلى جوفها. قالت بعد أن قطعنا نصف طريقنا إلى البيت: «أظن أني ما أصلح لك». وفهمت العكس فورًا..

بعد أحد عشر يومًا طلبت منّي أن أطلّقها، لم أتفاجأ بطلبها، على الرغم من أنّ لقاءَ جسدَيْنا يصلُ في كلّ ليلةٍ إلى قمّةٍ أعلَى من ذُرا اللذّة. لكن لم يجد أحدُنا لدى الآخر ما ينقصه. وليعذرني الحكماءُ الذين يرون أنّ كلَّ نقصٍ لدينا تعوّضنا عنه الحياةُ في شيءٍ آخر، بل كلّ نقصٍ يجرّ نقصًا آخر وكلّ خرابٍ يجرّ خرابًا آخر، وكلّ شيءٍ يجذب مثيلَه لا نقيضه.

في السابعة مساء، طلبت منّي أن أطلّقَها، وأنا أحترمُ القرارات التي تُتَّخذ في الساعة السابعة مساء. عادة ما تطلب الزوجات في هذا الوقت خبز «التميس» أو أغراضَ العشاء أو يتابعن مسلسلًا خليجيًّا، لكنّ نجوى طلبت الطلاق. أخذتُها إلى بيت أهلها بحقيبةٍ كبيرة، في اليوم الثاني عشر وعند الساعة السابعة مساء. أرسلت إليها على الواتساب: «ليه؟» فأجابت: «مااش جدًّا». كلمةٌ قصيرةٌ

telegram @yasmeenbook

تختصر الفشلَ في العثور على الشيء، تعني أنّ اللّاشيء كان حاضرًا بكامل قواه.

أرسلت لها على الواتساب:

«..أنا كذلك مسلوبُ أشياء كثيرةٍ وكبيرةٍ منذ صغري، ولم يُفتَح فيها تحقيقٌ بعد. إرادتي ثمّةَ مَن اجتثّها من جذورها، كلماتي سرقُوها من فمي، شنقوها بحبالي الصوتيّة. أحلامي التي كانت تصحُو باكرًا كالطيور وترافقني إلى المدرسة، كانت تتآكلُ في يد المعلّم كالطبشور. في المدرسة علّمونَا كيف نكره الحياةَ وتكرهنا من الحصص الأولى، حوّلونا إلى ممحاةٍ كبيرةٍ لأيّ حرفَين يقترفان خطأ الحُبّ. في المسجد أيضًا، أتذكّر أنّ حذائي يُسرَق كلَّ صلاة جمعة، تمنّيتُ أنّهم لم يسرقوا غير ذلك الحذاء..»

لم تردَّ على هذه الرسالة حتّى الآن، ربّما أكون قد توهّمتُ تلك القدرات الخارقة في عينيها، وقد تكون امرأةً ساذجةً كما توحي ملامحُها، لا تريد أكثر من متابعة مسلسلٍ كويتيٍّ والخروج إلى مقهًى والمزيد من البطاطس وشبكة إنترنت سريعة. في النهاية كانت هي امرأةً مليئةً بأنفاق الاحتمالات المظلمة وأنا رجلٌ تصالحت مع كلّ التشوّهات تحت الضوء. هي امرأةٌ لديها نظريّة «مااش جدًّا»، كانت هذه المرأة تريد أن أفهمها بشكلٍ لا يُطاق، وأنا أتعمّدُ إساءةَ فهمها بكلّ الأشكال الشائعة التي تنتهي باعتذار، لكن أنا رجلٌ لم أعد أهتمّ.. لم أعد أهتمّ..

telegram @yasmeenbook

كان ذلك الزواج كلقاء اثنين في سوق المسروقات، كلٌّ منهما يبحث عن أشيائه التي سُلبت منه، تيقَّنَّا بأنّ المسروقات التي فُقدت منّا كانت لدى طرف ثالث، يبدو أننا جميعًا نعيش في سوق مسروقات، يديره لصّ فقد ذاكرته.

كانت نجوى عالقة في لعنة عائليّة ممتدّة منذ حربٍ قبل مئة عام، تقدّم جدّ أبيها لِعقادة تلك الحرب، فخطّوا له الخطّة، قام رجل مُقدّر في زمن الأسلاف ومدّ عصاه وحفر خطًّا في التراب، وقف خلفه جدّ أبيها وردّد القسم القبائلي بأنّه لا زَنى ولا سَرِقَ ولا خان ولا عاب ولا أدبر من عدوّ، ثمّ أصبح عقيد تلك الحرب التي شنّوها ليلًا على قبيلة معادية خلف الجبال البعيدة، كان ذلك الجدّ شجاعًا أخذ إبلهم وثأر لقبائله، وأخذ يردّد أبيات شعر، بعد أن سكن اللّيل، يتلذّذ فيها بروائح دماء ضحاياه:

«يا زين ريح دِميّهم بعد هجعة كما المسك تذري به خفيف النوايد»

كانت سلالتُه مُكلّفةً بحفظِ هذا الإرثِ الثقيل، أوهام يسلّمها السابق للاّحق. حَكَم رجالُ العائلة ذلك البيتَ بصرامةٍ مؤذية، كلُّ تصرّفٍ في حياتهم يُوضع على مسطرة بطولات الجدّ، وكانت المرأة معيارًا قبليًّا يحطّ من البيت أو يرفعه، منعوهنّ إكمال دراستهنّ بعد المتوسطة، لا يأكل أيّ رجل من ذلك البيت مع أيّ امرأة، حتّى وإن كانت أمّه، ذهابهنّ إلى السوق أحد أحلامهن المؤجّلة، يكتفين بنور المشرقيّة تأتيهنّ بمبيعاتها النسويّة إ

telegram @yasmeenbook

إلى بيوتهنّ، ويطلبن منها ملابسهنّ الداخليّة وما يحتجْنه. وكانت نجوى نتيجةَ إلغاءٍ مبرمج لعدّة أجيالٍ من نساء هذه العائلة، كانت تحتاج أكثر من زوجٍ يذهب معها إلى مطعم أو إلى السوق لتشتري ملابس داخليّة على مقاساتها المختلفة عن مقاسات نور المشرقيّة..

بعد أشهرٍ من الطلاق رأيتُ معدّات «كتر بلر» الأمريكيّة تطحنُ سوق التمر، صوتُ محرّكاتها وعجلاتها الضخمة ودخانٌ أسود غاضبٌ يخرج من شكمانها المفتوح إلى الأعلى. وقفتُ بقرب سيّارات البلديّة ونزلتُ أراقبُ كما يراقبون من بعيد. كانت المعدّاتُ تهاجم دكّانَ دحيدح وتنسف تاريخَ هذا المكان كلّه، تزيلُ كلَّ ما له رائحةٌ وتبني أماكنَ بلا رائحة. تعيدُ ترتيب المشهد البصريّ بمعايير تناسبُ ثقافةَ من صنعوا هذه المعدّات لا من اشتروها، ولا كما يريد دحيدح الذي رحلَ قبل أن يصبح أحدَ أهداف حملة التشوّه البصريّ. لم يحمل جوّالًا طيلة حياته، وكان الراديو بثوبه الجلديّ صديقَه المخلصَ في ركن دكّانه، يعلّقه على كتفه قبل المغيب في طريق عودته إلى بيته.

كانت العلامات التجاريّة تلتهمُ الشوارعَ والمزارع، والسرطانُ ينهش جسدَ دحيدح عضوًا تلو آخر، يخمد السرطانُ أحيانًا فيقول دحيدح لأصدقائه في السوق: «السرطان مثل ضوّ الكُشُّبْ»، تلك النار التي تنتشرُ في كثبان التبن وعندما يظنّ المزارع أنّها خمدت تتأجّجُ من مكانٍ آخر.

telegram @yasmeenbook

وقف بجانبي أحدُ باعة السوق، وأخبرني أنّ دحيدح توفّيَ قبل حوالي شهرين، وأنّه أحدُ من أسعفوه. يقول إنّه وقعَ منتصف النهار وسط السوق مثلَ نخلةٍ نخَر جوفَها السوس. حملوه، وكان يتكلّم معهم في الطريق، عطّلهم ازدحامٌ بقرب المستشفى، سيّاراتٌ في خطٍّ طويل: «مثل يوم الحساب» تنتظر استلامَ أطعمتها، كان ذلك المشهدُ آخرَ ما نظر إليه دحيدح قبل أن يغيب إلى الأبد.. «تذكّر افتتاح المطعم الجديد.. في اليوم نفسه مات».

سكت قليلًا بعد حديثه عن موت دحيدح، تكلّمَ بنبرةٍ أخرى مختلفةٍ وأخبرَني بأنّ دحيدح احتالَ على الجميع ولم يكن لديه أبناء. كان يلفّقُ قصّةً تفيد أنّ لديه ولدَين،أحدهما يعمل في شركة «أرامكو» بالمنطقة الشرقيّة والآخر عسكريٌّ بالقوّات الخاصّة في العاصمة الرياض..

مضيتُ أردّدُ بنفْسٍ حزينة: حتّى أنت يا دحيدح .. حتّى أنت!!

telegram @yasmeenbook

الساعة الرابعة عصرًا.. دخلت إلى نجران والصحراء تتلوّى ورائي. باغتَني المستشفى باتّصال. لقد وافقوا على نقل ابنتي بالإخلاء الطبيّ. كانت أروى قد خرجت قبل ساعات، إذ ألحُّوا عليها أن تُفسِحَ السرير لغيرها. اتّصلت بها، وأبلغتها بأنّي لن أستطيعَ رؤيتها، وسأغادر مع طائرة الإخلاء.

..دخلتُ إلى المستشفى، وقابلت الطبيب الذي يشبه وجهُه قاموسًا طبيًّا. كنّا نتسابق في السير إلى قسم الحضانة، يدفعُه التزامُه المهنيّ، ويدفعني الخوفُ من أشياء كثيرةٍ لا أفهمها، وصلنَا معًا ونظرتُ إليها كما أنظر إلى نجمٍ يخفقُ فوق بِحَار بعيدة. كنتُ أكلّم هالةَ الضوء التي تخمد وتبتعد في جوارحها، فأخذتُ أهمسُ بوجعٍ لاإراديّ: «لا أحبّ الآفلين.. لا أحب الآفلين». خطفني الطبيبُ بنظرةٍ متألّمةٍ وأكمل عمله. وأنا أكملت استغاثاتي بتلك الطاقة الخالدة التي أنهكت الأنبياء والصعاليك والملوك والسكارى. كنتُ أرجوها لعلّها تمدّ قطعةَ اللحم الطريّ بومضةٍ من شعاعها اللّانهائيّ.

telegram @yasmeenbook

طلبُوا منّي الخروجَ من القسم والانتظار حتّى يحين نقلها، خرجتُ بقرب المولّدات لأدخّن، فوجدتُ الطبيب يخرج باكيت سجائره من البالطو. شعرت أنّه يتحاشاني، لا يريد أن أقترب منه وأرهقه بالأسئلة عن حالة ابنتي. فأشعلتُ سيجارتي، ورفعت يديَّ ليرى أنّهما نظيفتان ولا تخفيان أسلحةً قد تفسد مزاجَه. رحّب بابتسامةٍ مهنيّةٍ، وتوقّفت بجانبه. كنّا ندخّن وكلٌّ منّا شاردٌ في حكايته. وبعدما انتصفت سيجارتانا سألني دون أن يعطيني وجهه: «أوّل بيبي لك...؟». فاكتفيتُ بهزّ رأسي. فَهِم، وخرجت منه ضحكةُ سفاهةٍ صغيرة..: «معلش بس والله جتني فكرة سخيفة». فلم أعره اهتمامًا يكفي لإكمال فكرته. تحوّل وَجهُه من إنجيلٍ طبيٍّ إلى قصيدة رثاء..: «بجد أنا آسف ما كنت أقصد آآ...» ثمّ تلعثم. لم أكن حينَها مستعدًّا لتلقّي اعتذارات، وفي عاصفة ارتباكه بادلتُه بضحكةٍ أسًى من فصيلة ضحكته..: «لو عاوز أقبل اعتذارك قل لي الفكرة السخيفة؟»، قال بحزن: «عندي بنت عمرها ثمان شهور هي أكبر غلطة بحياتي.. فكّرت لو..»، وترك بقيّة الفكرة أتخيّلها كما أشاء.

انتهينا من التدخين وفتحنا باب الدرج القريب. سبقني بخطوات، ورفعتُ صوتي: «اعتذارك وصل يا دكتور.. الفكرة مش بطّالة». التفت وهو مبتسمٌ، وأكمل بمشية المسيح الصغير الذي يبرئ من الموت..

ألمٌ نبويٌّ أحملُه بين جنبيَّ وأمشي به داخل ردهات هذا المستشفى، أنا مسيحُ هذه اللّيلة ومحمّدُها وآدمُها ومهديُّها المنتظر.

telegram @yasmeenbook

أشعر بكلّ هؤلاء ينصهرون في روحي، ثمّة قوّةٌ علويّةٌ تضخّ موادَّها في جهازي العصبيّ، بدأت الرؤى تتدفّق في نبوءتي، أرى أصابعَ إلهيّةً تعزف على بيانو كونيٍّ باهر؛ ولكن لا أحد يعرفُ مصدرَ هذا الأنين والوجع المنبعث مع كلّ نغمة، حولي وشوشاتُ هياكلَ علويّة، بعضهم يقول إنّ إصبع الإله المكسور هو السبب، وآخرون يتّهمون الجسدَ الكونيّ بالعطب والمرض..

عدتُ أمامَ زجاج قسم الحضانة، كلّ زجاجةٍ بداخلها جمرةُ حياةٍ صغيرة، بعض هذه الحيوات لاهبةٌ وأخرى ينتشر فيها جيشُ العدم، سوداء تشتعل حوافّها فحسب..

حوّلتُ نظري من وجه ابنتي إلى طفلةٍ بجانبها، كانت تُشعُّ منها أضواء جريئة. أطلتُ النظرَ إليها، فامتصّني توقّدُ دمِها إلى الداخل. تنتظر هذه البنت حياةً صعبةً وسعيدةً في النهاية. انتقلتُ إلى صبيٍّ بجانبها ومنحتُه نفسي ليسمح لي بأن آخذ جولةً في حياته. كان مخزونُه من الضوء تعيسًا، لا أرى إلّا ضوءًا ثابتًا على بقعةٍ صغيرة. كم هو سيّئ أن تقضي حياتَك بعبوديّة عمود إنارة في مدخل معبد..

.. خرجَ الطبيبُ واتّجه نحوي. كانت بيده أوراقٌ مثبّتة في ملفّ، طلبَ منّي التوقيعَ على تحمّل كامل المسؤوليّة عن رحلة الإخلاء، كنت مستعدًّا للتوقيع بكامل المسؤوليّة عن كلّ ما يحدث في الكون، لأوّل مرّةٍ أشعر بالشرّ يظهر في داخلي دون أقنعة. لو طلبوا منّي قتلَ أيّ إنسانٍ مقابلَ حياة ابنتي لفعلت. وقّعتُ له على

telegram @yasmeenbook

الأوراق، وأخبرني بأنّ موعد نقلها قد يستغرق ساعات، ولا داعي إلى وجودي هنا حتّى أتلقّى اتّصالًا. ثمّ أخرج ختمًا صغيرًا من جيب البالطو وختم الورقة: «د. يحيى عبدالغفّار أخصّائي حديثي ولادة»..

لأسبابٍ غامضةٍ في الطبّ، يُقاس عمر الطّفل الحديث الولادة بثمانِية وعشرين يومًا، وما فوق ذلك بيومٍ يدخل تحت مسؤوليّاتِ اختصاصٍ آخر. لكن لماذا الثمانية والعشرون يومًا؟ وهل للأمر علاقة بعدد الأحرف العربية، التي يتصدرها الألف بقامته المستقيمة؟ وهل القامة الألفية المقابلة رمزيًّا لآدم الأول، الجُثة الإبداعية ومن في ضمنه من السبعة والعشرين الملبّين دعوته. أكُلُّها أسبابٌ تتّصل بحديث الولادة؟!

ربما لأنّ قصّة بداية الخلق التي سمعتُها في مجلسٍ للفقهاء قد شغفتني. كانوا ثمانيًا وعشرين جثة يتخلّقون في مغاور جبال سرنديب، وهُم في الشرف على بقية البشر بمقام «الياقوت الأحمر في شرفه على الأحجار»، بعد أن تشكّلت البحار والجبال والغابات ودبّ النمل واستقام النخل، وتمهيدًا لظهور «الإنسان» صاحب القامة الألفيّة. انطلقوا من تلك الأرحام في مغاور تلك الجبال الشاهقة، التي كانت تتعاقب عليها الأفلاك وترعاها الشموس والأقمار، فانعقدت تلك الأبخرة الكامنة بمياه الأمطار، ودفعت بآدم إلى عالم الكون والفساد، حتّى كبر ففكّر آدم من ذاته بذاته وفي ذاته، فسبّح الله وعرف أنّ له خالقًا محجوبًا عن الإدراك، وواجب

telegram @yasmeenbook

المعرفة. واحتلّ بذلك السبق في أن يكون الأقرب والأعلى مرتبة بينهم.

هذه «البيق بانق» الإسماعيلية، مصفوفة غيبيّة تثير دوافن نفسي، ومحبوكة رمزيّة مفتوحة على التأويل: لذا أظنّ أنّ ابنتي تركض في يومها الأوّل من القامة الألفيّة برئتين مغلقتين، ولست أملك إلّا التوسّل بالسيّد آدم وحرف الألف وأطباء حديثي الولادة وقوى العدم العمياء التي تُحلِّقُ في مخيلتي كسرب ببغاوات مهاجرة

.. خرجتُ متّجهًا بسيّارتي إلى البيت، أخذتُ الطريقَ المحاذية للوادي، ثمّ انعطفتُ مع شارعٍ ترابيٍّ بين المزارع، تجذبني تلك الطرقات الهادئة التي لا تتّسع لأكثر من شخصٍ واحد، تأسرني بأنفاسها المشبعة بالطين.

كانت الشمسُ تترنَّح في المغيب، تغادرُ من باب المدينة السماويّ. التفتُّ إلى ثغاء أغنامٍ وامرأة تمشي سابلةً يدَيها وبحِجرة قضبٍ فوق رأسها، وصوتُ مكائن الماء المُنهكة واستنفار الطيور بشجرة في ركن المسجد، كلّها أثارت فيَّ شهوةً مبهمةً لاختلاس شيءٍ مجهولٍ من بقايا هذه الشمس الغاربة. مدينٌ أنا للغروب بدموعٍ لم أذرفها، وأشياءَ أخرى مؤجّلةٍ لا أستطيع الوفاء بها، مدينٌ أنا لنفسي بنفسي.

ما أصعب أن نشتاق إلى أنفسنا. هذا يعني أنّ هناك مسافةً تفصل بيننا، قد لا تتجاوز هذه المسافةُ خطوةً واحدة، لكنْ يحتشدُ فيها كلُّ ما لا نريد مواجهته.

telegram @yasmeenbook

توقّفت في وسط نجران، انطلقَ أذانان مختلفان إلى السماء، الأوّلُ بمكبّرات صوت في كلّ الاتجاهات، يطفو أداؤه الأوبراليّ فوق أسطح البيوت، والآخر بميكرفونٍ واحد فقط، يدفع بكلمات الأذان بصلابة عسكريٍّ يؤدّي القسم.

كنت أتردّد على هذا الشارع ليلًا، أقطعُه جيئةً وذهابًا. لقد تعوّدتُ فيه على الاختناق وأحببتُه. أستمع لزعيق السيّارات، وأمتلئ به وسط المدينة بأوقات الذروة، أستنشق الكربون من العوادم وروائح الأطعمة المقليّة الملتصقة بالهواء، أعبُر الرصيفَ ذلك الحيّز الهامشيّ الضيق، أتفرّج على واجهات المحلّات الزجاجيّة والمعروضات في داخلها، أتوقّفُ أمام شاشات تلفزيون ضخمةٍ تعرض وثائقيّ «سجين في الغربة» على قناة ناشيونال جيوغرافيك، يليه محلٌّ لإصلاح الأحذية تمنّيت لو طلبتُ منه إزالة كلّ المسامير التي اخترقت قدمي في كلّ محاولات الهروب السابقة.

مِن بعيد، كان صوتُ راديو يتدفّق بآيةٍ قرآنيّةٍ من كشكٍ خشبيٍّ صغير: «فكأنّما خَرّ من السماء فتخطّفه الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيق»، إنّه كشك مهندس الساعات أودّ لو كانَ باستطاعته إصلاحُ زمن هذه المدينة الغارقة في ماضيها إلى النخاع. أواصلُ المسيرَ، وترتطمُ كتفي بالمارّة كتحيّةٍ يتبادلها الغرباء. أذوب بين حشود العمالة المهاجرة المبثوثة في كلّ مكان، مخترقًا غيمةً مثقلةً بأصواتهم ولُغاتهم المختلطة، أتخلّى عن حواسّي للشارع وأحاولُ إفراغَ حمولتي النفسيّة الفاسدة في هذا المكان، وأتخلّص منها تحت

telegram @yasmeenbook

الأقدام المسرعة، حتّى أنتهي عند مسجد السوق القديم الذي تمتدّ منه مئذنةٌ قديمةٌ ملطّخةٌ بذرق الطيور..

أنا متعبٌ، أريد أن أستريح قليلًا يا الله، سأخلعُ عقلي وأضعه بباب مسجدٍ وأهرب، أو أرميه في مقبرةٍ كبيرةٍ يرمي بها السكارى قواريرهم الفارغة. جمجمتي المليئة برماد السهر والأرق وأعقاب السجائر تؤلمني، تمنّيتُ كثيرًا لو لم تكن لي هذه الجمجمة، لعلّها كانت أنفع لو أنّها عشٌّ لعائلةٍ من الطيور السعيدة، أو مزهريّةٌ في نافذة امرأةٍ جميلة.

.. استدرتُ عند ساحة القِصاص وتركتُ «حيّ الفيصلية» ورائي. قطعتُ «حيّ الفهد» ببيوته الغامضة وإضاءات النوافذ الخافتة والموارِبة. في إحدى شقق هذا الحيّ تستعيدُ بعضُ البنات غشاء بكارتهنّ. توقّفتُ بإشارة شارع الملك عبد العزيز التي تتقاطع مع شارع الملك سعود، ومن أمامي مستشفى الملك خالد في زاوية حيّ الخالدية الذي تباع فيه الممنُوعات وتزوَّر فيه الوثائق والهويّات.

في التقاطع بين شوارع الملوك يتربّع «مفرق الخميس»، الدائرة الأكثر ازدحامًا في نجران. فالسيّارات تتكدّس في كلّ مكان، ويعبر الشارعَ عشراتُ المشاة في كلّ اتّجاه. انطفأت الكهرباء وأظلمَ الشارع والإشارات الضوئيّة، وبقي لونٌ أزرقُ من لوحة الإعلانات على بقعةٍ معتمةٍ في منتصف المفرق. كانت أصواتُ منبّهات السيّارات تنطلق، وفوضى تعمّ المكان. تحرّكتُ مع حركة السيّارات أمامي،

telegram @yasmeenbook

وفي أجزاء من الثانية كان المفرق يحتقن بسيّاراتٍ متداخلةٍ من كلّ اتّجاه، وما يحدث في رأسي يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ هذا المفرق الآن. بجانبي حادثٌ لثلاث سيّارات، وهناك في الوسط أصواتُ بشرٍ تتنابح بعضها على بعض. عَلِقْتُ في محشر السيّارات هذا متأمّلًا مفرقَ ما بعد الموت الذي حدّثونا فيه عن محشرِ عُريٍ كبيرٍ للجنس البشريّ. لا بدّ أنّه خيالُ فنّانٍ سوريالي استوحَى هذا المشهد وأوحى به إلى عقولنا.

تفكّكت السيّارات بعضها عن بعض قليلًا. وبدأ النظامُ يستعيد ذاته. في أوّل الأمر يتهيّأ لنَا أنّ الفوضى التي تحدُث بعد اختفاء أيّ نظامٍ هي مصيرنا، نظنّ أنّنا بحاجةٍ إلى أنظمةٍ قاسيةٍ تحكم فوضانا الأقسى. هذه اللحظات التي تغيب فيها الأنظمة والمعتقداتُ لسببٍ مّا هي مخاضٌ لإنشاء نظامٍ جديدٍ يشبهنا.

هذا ما جرى قبل قليل، وربّما يحدث في الأيّام القادمة. ستستعيدُ حياتي ذاتَها بعد هذا الزحام والاختناق لسنواتٍ طويلةٍ ومنهِكة، إمّا أن تنطفئ هذه الطفلة وأدفنها في الظلام إلى الأبد، أو تحيا وتضيء لي تقاطعات الروح ونوافذها.

خرجتُ من بين السيّارات يقتادني الشارعُ إلى قدري كما يُقادُ مجنونٌ إلى طبيبه العقليّ. كنتُ أهرب ببطء من الأقدار المسرعة القادمة نحوي، كان الوقت مناسبًا للتسلّي بلعبة الربط اللا منطقي بين هذه الأنفس الحديديّة وعقل المكان.

telegram @yasmeenbook

أعتبر دائمًا أنّ سلوك السيّارات في الشوارع هو علم نفس المدينة، فأولئك الذين يستحيل أن يستخدموا الإشارات في قيادتهم، يعرفون جيدًا أنّ هذه المدينة مكينة تزوير كبيرة، وعليك أن تستخدم نوايا مزوّرة، وتقدّم لهم خططك ونسختك المزوّرة، وتتداول كلّ أفكارهم المزوّرة، حتى تثبت براءتك من حقيقتك، وتكون اللا أنت المستقلّ عن كلّ ما هو لك لمصلحتهم، هذا هو الطريق الوحيد للحصول على الأمن النفسي بينهم. في أحيان أخرى أظنّ أنّهم لا يستخدمون الإشارات لأنّ ثمّة بداوةً روحيّةً ما زالت راسبة في النفوس، مخاوف بدائيّة من أيّام الجوع والنهب وسلب الأرواح، منذ كان البدويّ لا يُفصح للغرباء عن نواياه وطرقاته التي سيسلكها.

وبعيدًا عن كل هذه الظنون، المؤكّد أنّ ثمة عدم تسامح دائمًا بين كلّ هذه السيّارات في الشوارع، يفلتون حيواناتهم الحديديّة كما لو أنّها في غابة، لا أحد يسمح للآخر بأن يمضي أمامه، لا أحد منهم يريد أن يكسب الطريق بقدر ما يريد أن يمنعه عن الآخر، إنّها فلتات موهبة الإقصاء التي نتقنها. وربّما كلّ ذلك ليس إلّا استعراضًا انتقاميًّا يحدث في الشارع بين ذواتٍ مُلغاة في كلّ الأماكن الأخرى.

انتابني شعور ما قبل وقوع الشيء، ذلك اللا يقين الخطر الذي يحوّل الزمن إلى حيوانٍ مذعورٍ بأذنين منتصبتين، الزمن الذي تنطلي فيه كلّ الجهات والوجوه بلونٍ قاتمٍ مُبهمٍ وعدائيّ.

telegram @yasmeenbook

نزعتُ جوّالي مع أوّل انبثاق النغمة، أواجه المجهولَ بنباهةِ قنّاص، مَن يصل منّا إلى سلاحه أوّلًا ربّما يحظى بالفوز. ضغطتُ زناد الردّ على المكالمة، وبقدمي ضغطتُ على دوّاسة البنزين، سقيتُ سيّارتي جرعةَ وقودٍ دسمة فاندفعتْ تلهتم الشارع بوحشيّة.

.. اتّجهت إلى المطار أحفرُ طريقي في هذا الفراغ الثقيل، أعبر الزمن الرخوَ قبل أن ينهار، مخترقًا بعقلي وقلبي كلَّ ما قد آمنتُ به وما كفرتُ به في هذه الحياة، لم أشعر بأيّ خطرٍ على الإطلاق، وكلّ أحاسيسي ليست آمنةً كليًّا.

telegram @yasmeenbook

الساعة السادسة والنصف.. الطائرة تهبط بهديرِها على المدرج، والإسعافُ يقف بألوانه الحمراء العاكسة، وضوؤُه الأحمر يدور في ساحة المطار المظلمة، وأنا في صالة المسافرين. لم يسمحُوا لي بعدُ بعبور بوّابة السفر.

ينتابُ الناسَ هنا فضولٌ إلى معرفة مَن بداخل الإسعاف، حتّى زمنٍ قريبٍ كان أغلبُ من في هذه المدينة يسمعون صوتَ الإسعاف مرّةً في الشهر، ويعرفون مَن بداخله قبل أن يصل إلى المستشفى. قد لا يحتاجون إلى أحدٍ يخبرهم، فلديهم ما يكفي لمعرفة أكثرَ من ذلك بعضهم عن بعض.

هذه الجغرافيا بمَن علَيها تعيشُ بلا مزاج. الإنسانُ هنا معفًى من حياته، يُسلّم إرادتَه للقبيلة، ويمنحُ عقلَه وَقْفًا لرجال الدين. فيقعُ فريسةً للفراغ، ويعيشُ في ملل، ولا يملك سوى مراقبة الناس وأخبارهم، فيما هذه القرية تنتهي من مخاضها الطويل لتلدَ من نفسها مدينةً حقيقية. لكنّها حتّى الآن عقيمٌ لم تنجب أنبياء كما أوهمَنا سدَنَةُ التأويل، ولا ناطحاتِ سحابٍ ومراقصَ ليليّةً كما وعدَنا الآخرون.

telegram @yasmeenbook

.. أغلقتُ عليَّ بابَ الحمّام، رُبعهُ السفليّ مفتوحٌ وسقفُه أيضًا. تبوّلتُ واقفًا، وبكيتُ بشهقاتٍ طفوليّةٍ جَرَحَتْ صدري وآلمتْ روحي. بكيتُ أشياء كثيرةً كانت تنتظرني لأبكيها، أفرغت مثانتي ودموعي. وخرجت. غسلتُ وجهي، ورميتُ المناديل في صندوق القمامة. وفي باب الحمّام صادفتُ وجهًا غريبًا أوشكَ أن يتكلّم معي. تجاوزني إلى الداخل، وابتعدتُ عنه إلى أقرب كرسيٍّ من الزجاج المطلّ على أرضيّة المطار.

بعد دقيقةٍ، عادَ وسلّم بصوتٍ مرتفع. صافحَني مصافحةَ عزاءٍ مبكّر. ثمّ جلسَ بجانبي، وتحاورنا بتلك الكلمات الخفيفة والمشفّرة التي أورثنا إيّاها أسلافنا..: «كيفنت/ سلمت/ طيب/ طاب فيك..ماجور/ الله يعافيك/ والسلامة/ الله يسلمك». أردّد معه كيفما اتّفق، وأحاولُ تذكُّرَ وجهه، متيقّنٌ أنّي رأيتُ ضوء عينه في حلمٍ مّا أو مقهًى.

هذَا هو عبدُ الناصر الذي ألتقيه مرّةً كلَّ خمس سنواتٍ بوجهٍ يترنّح في حيرته. بلحية متشابكة واشتباهات تلوح في كل شيء من حوله. في لقائي الأوّل معه، كان قد خرج جسديًّا من السجن، وبقيَ عليه أن يحرّرَ عقلَه من معتقلاتٍ أشدَّ ظُلمة. كانت روحُه أيضًا خامدةً وضوءُ عينيه شاحبًا ومسلوبًا. مات أخُوه بالسرطان في مُدّة السجن، ولم يتمكّن من حضور عزائه. بعد خروجه أُصيبَ أبوه بجلطةٍ في القلب، فنقلوه إلى الرياض. التقيتُه في مدينة الملك

telegram @yasmeenbook

فهد الطبّيّة، وكنّا نتحدّث بعد نهاية كلّ زيارةٍ على طرف تلك النافورة المنعشة في بهو المستشفى.

غادر عبد الناصر بصحبته امرأة. واختفيا داخل خرطومٍ زجاجيٍّ يضجّ بالمسافرين. كان في عامه الجامعيّ الأوّل عندما قُبِض عليه في أحداث «هوليدي إن» نجران التي أصبحت تقسّمُ زمنَ هذه المدينة إلى قسمَين، فما قبل «الهيّه» ليس كما بعدها. قادوا عبد الناصر مكمّمَ الفم معصوبَ العينين، مقيّد الرجلَين واليدين، إلى مركزٍ أمنيٍّ كان فناؤه مملوءًا بالمطلوبين الجاثين على رُكَبهم، كانت لهم رائحةُ خيلٍ منتصرةٍ كما وصفها عبد الناصر.

أمضى عشرَ سنواتٍ في عنبرٍ بالسجن كانت تعصفُ فيه الأفكارُ الدينيّة. فلم يكن يملك خيارًا يقيه الجنونَ هناك إلّا أن يصبح على الطرف الآخر من التطرّف. أطلقَ لحيتَه، وقطّبَ غترته الناصعة البياض على رأسه، وحفظَ أدعيةَ الصرخات على «بني أميّة». كان يقرؤها وحيدًا في جوف كلّ ليلة. وفي سنواته الأخيرة بالسجن كان إمامُ الزمان يزوره في أحلامه، ويرى عبد الناصر وجهَه يعلو فوقَ ضجيج السجناء. ولم يعد لديه هدفٌ في هذه الحياة إلّا الخروج لملاقاة «إمام الزمان».

كانت رحى الولاء والبراء قد دارت دورتَها في حياته. وقد شاركَ بنشاطٍ من داخل السجن في اللعن والسبّ والدعوة إلى مقاطعة بعض الفرق المنشقّة داخل المذهب الإسماعيليّ. وليثبت

telegram @yasmeenbook

ولاءه كان عليه أن يُعلنَ براءته من أبيه وأعمامه في « منتديات وادي نجران» الإلكترونيّة. وكان من السبّاقين في ذلك. حتّى إنّه كلّما وردَ ذكرُ والده في حديث، لا ينطق اسمه، بل يسمِّيه «المخالف». وكانت هذه الصفات التي خلعها عليهم الفرزُ المذهبيّ: هذا مُخالف وذاك مؤالف. وامتدّ الأمرُ في الأرض القبليّة حتّى طُلّقتْ نساءٌ من أزواجهن، وقُطعَ السلام وكادت هذه المدينة تصبح بلا تحيّةٍ يتبادلُها البشر عندما يلتقي أحدُهم الآخر.

كانت أوّلُ مرّةٍ رأى فيها عبد الناصر أباه بعد خروجه من السجن عندما مرض الأبُ وتوقّف قلبه مرّات. جاء إلى المستشفى وجسدُ أبيه مسجًّى على سرير العناية المركّزة. فوضع وجهه في حَفَاتَيْ أبيه البارزتَين من الغطاء، ومرّغَ عينَيه الغارقتَين بالدموع فيهما.

كانت قوى الولاء والبراء تردعُه بقوّةٍ عن زيارة أبيه. ولعلّه يتذكَّر وجهَ شيخ الدين الذي التقاه بعد خروجه من السجن، فما إن عبر بوَّابة السجن حتّى وقف بباب ذلك الشيخ لكنّه صرفَه أيّامًا متتالية. فقضى عبد الناصر ليلهُ نائمًا على سجّادته عند باب المسجد حتّى أدخلوه. كان يريد أن يقف في حضرته الشريفة، أن يلمس حبلَ الله الممدود، ويتمسّك بعروته الوثقى. فصلّى خلفَه الظهرَ والعصرَ، ثمّ هوى بالقُبلِ والدموعِ على يديْ شيخه. فربّتَ عليه شيخُه وهمَسَ له بوجهٍ بشوش: «بارك الله فيك.. أخبارُك الطيّبة تصلنا حتّى وأنت في السجن». ثمّ مسحَ على صدر عبد الناصر وقرّر أن يعطيه بيتًا، ويمنحَه وظيفة، ويزوِّجَه أيضًا، من أملاك بيت

telegram @yasmeenbook

المال. لكنّ سقوط أبيه المفاجئ بنوبةٍ في القلب حادَ به عن ذلك الطريق وأنهى ذلكَ العقد الأيديولوجيّ مبكّرًا.

صادفتُه بعد سنواتٍ من لقائنا الأوّل بعد أن نقضَ عهدَه بكلّ الأديان. كان في حالةٍ من الرِّدّة ضدّ نفسه وضدّ كلّ ما في الدين والبشر من خيرٍ وشرّ. أخبرني عبد الناصر بأنّه لشدّة ما رأى الشيخ من ولاءٍ خالص في قلبه، وظفّه كاتبًا يرصدُ أسماء الموتى والأحياء والمرضى الذين يأتي أقاربُهم لدفع ما يُسكّنُ مخاوفَهم ويمنحهم الراحة الأبديّة. كان عبد الناصر يسمّيها شركة «لا إله إلّا الله»، وأغلبُ أنشطتها التجاريّة تقوم على خدماتِ ما بعد الموت، فيمكنك أن تعطي مالًا مقابلَ دفع النحوسات أو خدمة تخليصك من عذابات مَا بعد الموت، أو تشتري منتجًا يجنّبك وحدةَ القبر ويتدبّرُ لك مؤنسًا هناك، أو تشترك في باقات الولاء بالصِّلات الماليّة المتتالية.. توقّع عبد الناصر أن يجدَ الله هناك، لكنّه لم يعرف سوى عدِّ الأموال ومجموعةٍ من أَكَلَةِ النذور والعقائق الذين يضمنون أن يلتهموها دون أن يكسروا عظمًا واحدًا منها.

كانت مفاصلُ حياته كلّها قاسية، تعلّم فيها كيف يضَادُّ ويعادي ويكرَهُ لا أن يحبَّ ويرحم. كان يرى أنّ الأديان تعلِّم الإنسانَ أن يعرفَ شيطانَه أكثر من إلهه، تمنحُه عدُوًّا كونيًّا يُفرغُ فيه كلَّ تلك الطاقات السامّة المحتقنة في أعماقه. قلتُ في نفسي: ها هو الآن عبد الناصر يشيطنُ الأديانَ وينفّذ عملًا انقلابيًّا ضدَّها وضدَّ نفسه، لكنّه دون أدنى شكٍّ سينقلبُ على إلحاده في يومٍ غير بعيد. تحوّلاتُ

telegram @yasmeenbook

المتطرّف متشابهةٌ في كلّ العقائد، جميعُهم ينتظرون دخانَ نهاية هذا العالم وعندما تتأخّر يشاركون في إشعال النيران..

.. قبل أن يغادر، سجّلَ رقمَ جوّالي وأعطاني كرتًا لدار نشرٍ يملكها بجدّة، لم يعُد يربطه بنجران غير أمٍّ يزورُها خلسةً عن أبيه، فلم يكن بريئًا ذلك الأبُ الذي تبرّأ منه عبد الناصر يومًا مّا، فقد منع ابنَه من دخول بيته، لأنّه تزوّج بامرأةٍ أحبّها وأحبّته. يردّدُ الأبُ دومًا أنّ ابنَه طعنَه في صدره يومَ تبرّأ منه في الإنترنت، وطعنه في ظهره يوم تزوّجَ حضريّة.

أمّا عبدُ الناصر فيبدو أنّه كان يدركُ يومًا بعد آخرَ أنّ ثمّة شيئًا ثقيلًا يجبُ الإطاحةُ به: القبيلة، مروّجو أفيون الدين، جغرافيَا السجن الوعرة، ولا بدّ من إضرامِ النار في رماد هذه الذَّاتِ المبعثرة.

شاهدتُ طائرةَ عبد الناصر ترفعُ رأسَها المدبّب، وتخترقُ الظلمة. رنَّ جوّالي، إنّها رسالةُ واتساب من رقمٍ غير مسجّلٍ بهاتفي، رماها عبد الناصر كوحيٍ يقع من الأعلى:

«السجن بنى عشًّا سرطانيًّا في غدّة البروستاتا، تعالجتُ بالكيماويّ سنتَين وشُفيت، ولم يبقَ معي من الدنيا إلَّا هذه المرأة التي تحبّني بأمراضي، عرضتُ عليها الطلاق لتنجب أبناء لم أعد قادرًا على إنجابهم، فكأنّي جرحتها في أعماقها، ولم تقبل. المرضُ جعلني أرى الضعف، وكان الحُبّ ثمرةَ ذلك الضعف الذي أدخلني جنّة «عزّة»، تزاملنَا في معهد بهاتفيلد

telegram @yasmeenbook

نتعلّم فيه الإنجليزيّة، كان كلانا قد تألّم بما يكفي من هذه الحياة، تبادلنَا بعضَ الكُتب والتأمّلات والروائح والنبض والصمت، تزوّجنا بمحض إرادتنا وبملء عقلَينا وعاطفتَينا. وحصلتُ على وظيفةٍ جيّدةٍ في المعهد الإسماعيليّ بلندن، ذلك الأمر الذي أشعلَ الشائعات بأنّي سرقتُ مخطوطاتٍ نادرةً من مركز الدعوة الإسماعيليّة السليمانيّة بنجران، وبِعتُها للطائفة الآغاخانية، ما جعل شيخ الدين يدعو عليّ بدعوة «قاطِعة الصِّيبْ والنصيب».

دفعَني جوعٌ فطريٌّ إلى فهم هذا الوجود فقرأتُ في علوم هذا المذهب حدَّ الهوس، تنقّلتُ بين أنماطه من الشريعة إلى التأويل وتأويل التأويل ثمّ من المبدإ والمَعاد حتّى الحقائق والدقائق تجاوزتها إلى دقائق الدقائق. لم أترك مخطوطًا أو كتابًا في الخزائن إلّا سامرتُه لياليَ طوالًا. قضيتُ من العمر ما لم أعشه مع أهلي، برفقة «إخوان الصفا وخلّان الوفا» و«راحة العقل» و«مزاج التسنيم» و«الشموس الزاهرة والأنوار المضيئة الباهرة». وجميع كتب حميد الدين الكرماني ومجالس المؤيّد في الدين الشيرازي وعلي بن الوليد ودُعاة الدور السليمانيّ، حفظتُ بروجَ الأفلاك وحركاتها وموسيقَاها والطرقات التي تسلكها الروحُ من بينها بعد أن تفارق هذا العالم. هِمتُ في غيوبات «الفتح والجدّ والخيال» وسافرتُ بين العقول العشرة وفلسفاتها حتّى قادتْني إلى «تاسوعات أفلوطين»، ومنها

telegram @yasmeenbook

ولجتُ إلى الفلسفات الإغريقيّة كما هي، فجرفتْني الفلسفةُ على الشاطئ الإسبينوزيّ، الذي أوحى إليّ الله فيه بأنّه قد يتجلّى في رُكبة مزارعٍ مجروحة، في ضحكة طفل، في فاكهةٍ ناضجةٍ لحظة سقوطها عن العِذق، في ضوء الصباح من نافذة بيتٍ طينيّ، في كلّ ما هو جميلٌ وأخلاقيٌّ في هذا الوجود.

دخلتُ بين الفقهاء وأدركت أنّي في المكان غير المناسب، رأيتُ الله بصورةٍ أقربَ في الصمت والاعتزال، عرفتُ إلهًا آخرَ أحبّه مثل حبّهم للحياة ومطامعها، كلّفني ذلك الكثيرَ في مواقفي التي كانت فوق كلّ منازعاتهم على من يحتكر حقيقةَ الاتّصال بهذا الربّ، كان كلُّ فريقٍ يعتبرني ضدًّا مع الطرف الآخر، فعدتُ، وتسلّلتُ يومًا إلى المحراب الذي يتنازعونَه منذ مئات السنين، وأخذتُ الميكرفون وقلتُ على رؤوس الأشهاد: «أيّها القوم ..لا أعبد ما تعبدون»، فتخاطفوني وأخرجوني من المسجد ركلًا كما حدث لكثيرٍ من الأنبياء في أقوامهم. خرجتُ من ذلك الباب ليس كما دخلتُ منه، أطحتُ بأصنامهم الروحيّة، ومضيتُ خفيفًا مع الله. أمّا الآن وشمسُ الحرّيّة تسفع وجهي، لا جدران المعتقلات الباردة والمعابد الموحشة، فالآنَ عليَّ العودة إلى نقطة بدئي، وعبور كلّ ذلك التاريخ المختنق بالظلمات، عليّ أن أكونَ خبير متفجّراتٍ لأفكّك كلَّ الحقائق الملغومة في ذهني، ويجبُ أن أصبح عالمًا في المنطق لأنفيَ كلَّ إثباتٍ دون براهين، وعليَّ أن أفحص الـــDNA لكلّ

telegram @yasmeenbook

الأكاذيب التي جعلوني أعتنقها. وسأترك لهم حرّيّةَ التصديق بأنّ دعوة شيخهم أن يقطع الله صيبي ونصيبي قد نفذت إلى السماء وأنّي لن أنجب أبدًا.

دعواتي وصلواتي الصادقة لابنتك.

عبد الناصر»

..أنهيتُ قراءةَ رسالة عبد الناصر في مقعدٍ على الكراسيّ القصيّة من صالة المطار. ثمّ دبَّ خدرٌ في جسدي. أمَلتُ رأسي على كتفي، وغفوتُ دقائق. فحلمت بأنّي أراني طفلًا بقرب أمّي، وهي ترفعُ البُرّ بقبضتيْ يدَيها ثمّ تسكبه، فتأخذه الريح كلّه ولا يتبقّى منه شيءٌ. كان خُبْزنا يتبدّدُ في السماء، رأيتُ بركةَ الماء تطيرُ مع الساقية إلى أعلى، وجدارَ الطين القصيرَ يذهب مع كلّ شيءٍ حولي إلى السماء، بقيت أنا وأمّي وحدَنا على حدبةٍ جرداء رماديّةٍ لا جبال فيها أو كائنات، تحت سماءٍ مكفهرّةٍ تطلقُ رعودًا مرعبةً تدوّي في الفراغ، وطائرٌ ينقر جبيني، له ريشٌ ناريٌّ وجناحان داميان ومخالبُ مبلّلةٌ بطين ما بعد الطوفان. كانت العتمة تغلق كلَّ الجهات، والريحُ الهائجة تعبر بسرعةٍ بين قدميَّ الحافيتَين. أمسكتني أمّي، ودسّتْني في ثوبها وهي تمشي بي حتّى دخلنا من خَرقٍ داخل صخرةٍ وخرجنا من الطرف الآخر وقد أصبحنا ثلاثة: أنا وأمّي وابنتي..

أفقتُ فزعًا من حلمي، وروائحُ العطور تسبحُ في هواء صالة المطار الباردة. نساءٌ ملفوفاتٌ بعباءاتٍ سوداء تحتَها أجسادٌ تبدو

telegram @yasmeenbook

مبتهجةً بالسفر، لا يستطيع ذلك السوادُ إخفاءها. كنّ يمشينَ إلى البوّابات ويسلّمنَ الموظفَ تذكرةَ الصعود كما يسلّم سجينٌ أمرَ الإطلاق إلى بوّاب السجن. غادرتُ مكاني إلى زاوية الصالة لأتفقّدَ الإسعافَ والطائرة، كلاهما في مكانه لم يتحرّك. سألتُ عسكريًّا من أمن المطار صاعدًا من الدرج المؤدّي إليهم، وأخبرني أنّهم ينتظرون مريضًا آخر لنقله على الطائرة نفسها.

عدتُ إلى مقعدي أنظرُ في فوهةٍ يغيب فيها المسافرون، تذكّرتُ دخولي في الصخرة أنا وأمّي، وأخي الذي دخلَ في جُحرٍ بصخرةٍ وخرج ميّتًا من الجهة الأخرى. كان مريضًا بالفيّ وهو في بطن أمّي، تعرَّضَ لظلال ابنة عمّها التي ماتت بمرض التي بي، نفضتْ أمّي فراشَ مرضها بعد موتها، فصاحتْ بها عجوزٌ من أقاربها وأخرجتْها من الحجرة، لم تكن أمّي تعلم أنّها نفضتْ أشباحًا من ذلك الفراش، وتنقّلَ الخبرُ بأنّ ذلك الجنينَ امتصّ ظلَّ ميّتٍ ولن يخرج سليمًا. وبالفعل كان معلولًا منذ ولادته. لجأت أمّي، بعد عرضه على المستشفى الوحيد في ذلك الوقت، إلى الحيد المخرومة من وسطها، أخذَه جدّي وأبي إلى هناك، وقف كلّ واحدٍ منهما في جهةٍ تحجب بينهما الصخرة، سرّبَه جدّي وهو يتمتم ويتشفّع بأسماء الأنبياء والصالحين، وتلقّاه أبي في الطرف الآخر ميّتًا.

تعيدُ أمّي هذه الحكاية دائمًا، تتخلّص من الذنب الذي تشعر به بإعادة تفكيكها مع تفاصيلَ جديدةٍ في كلّ مرة. آخر ما سمعتُه منها كان قبل أشهر، يبدو أنّها قالت لي شيئًا لم تقُله من قبل، ذكرت أنّ

telegram @yasmeenbook

جدِّي لمّا عاد إليها يواسيها، قال لها إنّ هذا الجحر سيحيي لكِ ابنًا آخر، ولكنّ أمّي لم تحتجْ إلى رصيد النجاة المحفوظ في الصخرة مع بقيّة أبنائها.

ذهب عقلي إلى فكرة أن آخذ ابنتي من هذا الإسعاف وأذهب إلى الحيد المنقوش في جبهتها عبارةٌ بخطّ روحانيّ: "أنا السرّ المستتر الصعب الوعر الذي لا يسطر في الأوراق ولا تنظره الأحداق". يعلو تلك الصخرةَ غديرٌ صافٍ تشرب منه الطيور وتلتقي حولَه، أعرف تقريبًا موقعَها في مصبّ "مسيل الغيضة" في صدر جبلٍ كبيرٍ أصمّ يدعى قرواح. ستكون أمّي في جهةٍ وأنا في الأخرى، لقد قطعتُ هذه الصخرةَ لأمّي وعدًا بحياة، ورأيتُها في الحلم تعبر الصخرةَ وتحتضن ابنتي على صدرها ونورٌ يشعُّ منها. لا أعرف هل هذه هلوساتُ السهرِ المتكدّس كالبارود في عينيّ، أم هي شهوةٌ جاهليّةٌ عصفت بعقلي. أريدُ الهروب بهذه الطفلة الطريّة من سكاكين الأطبّاء وأضوائهم النهمة إلى الغموض الذي يحفّ تلك الصخرة، قد تهدأ هناك اعتبارات الموت التي يمتلئ بها جسد هذه الصغيرة.

تحرّك الإسعافُ من مكانه، رأيتُ الأضواء الحمراء تنعكس في واجهة الصالة الزجاجيّة. فقمتُ أستطلع المستجدّات، فرأيتُ الإسعاف الذي يحمل ابنتي لم يتحرّك. هناك إسعافٌ آخرُ دخلَ المطار وشخصٌ طارئٌ يقف بجانبي ويراقبه. سلّمتُ عليه، وأخبرته بأنّنا ننتظر من أجل مريضهم. كان يراجع أوراقًا في يده

telegram @yasmeenbook

بعينَين متعبتَين، فردّ التحيّة ومشينَا معًا لنجلس. قال إنَّ مريضَه لا تكادُ تستقرّ حالتُه ليسمحُوا بنقله في الطائرة. كان ابنه الذي تقلّبَ في سيّارته الشاص وهو راجعٌ من حوش إبلهم في طرف الصحراء، عمرُه أربعة عشر عامًا وتوفّي معه في الحادث صديقاه، وهو مصابٌ بكسرٍ في قاع الرأس وأبوه مصابٌ بذهولٍ عالقٍ في عينيه.

..دُعينا إلى النزول على درجٍ جانبيٍّ بمرافقة الأمن. خرجنَا منه إلى أرضيّة المطار الذي تقفُ عليه الإسعافات، وطلبَ منّا رجلُ الأمن الوقوفَ على مسافةٍ لا تكفي لمعرفة ما يحدث داخل سيّارات الإسعاف. كانت عمليّة نقل المريضين إلى الطائرة قد بدأت. الفريق الطبيّ المرافق لابنه نقلُوه مباشرةً إلى الطائرة، والإسعاف الآخر تجري فيه حركةٌ زائدة. تجاوزتِ المدّةُ ثلثَ ساعةٍ وهم يدخلون ويخرجون إلى الإسعاف. حاولتُ الذهاب إليهم، فمنعني العسكريّ ببرود، والرجل المصابُ بالذهول يتذمّر من التأخير الذي يحدث. طلبنا التحدّثَ مع أيّ مسؤولٍ في الموقع، فجاء المسؤول عن الرحلة، وكان من موظّفي المطار، قال إنّ المولودة التي في الإسعاف ليست مستقرّةً لتُنقَل حتّى الآن. فصرخ الرجلُ المصاب بالذهول في وجه الموظّف ونسيَ وجودي حوله: "يرجعونها المستشفى.. والحياة بيد الله.. إذا حصل لابني شيء والله لآخذ حقّي منكم". ثمّ هدأَ وجلسَ بجانبي بعد أن غادر الموظّف. والتفت نحوي يريد أن يتكلّم، ظننته سيعتذر فقال: "ياخي خذها عطلتونا.. بيرزقك الله غيرها مليتوا الدنيا عيال".

telegram @yasmeenbook

كيفَ أخبرُ شخصًا كهذا، تتصدّعُ روحُه على ابنه، بأنّ ابنتي بعمر ابنه، وقعَ لها حادثٌ في طُرق الغيب قبل أربعة عشر عامًا، وبأنّ كثرة الإنجاب التي يراها ملأت البيوت أطفالًا هي نقدٌ لا يوجَّه إلى حياتي الخالية منهم مثل خلوّ الصحراء التي تقَلَّبَ فيها ابنُه؟!

لم أردَّ عليه وهو لم ينتظر ذلك الردّ. نصب نظرَه على إسعاف ابنتي، جعلَها بمنزلة عدوٍّ لحياة ابنه، وبعد عشر دقائق أُخرى عادَ الموظّف وأخبرنَا أنّهم سيعيدون ابنتي إلى المستشفى والطائرة ستتحرّك بابنه. طلبَ منه هويّتَه وأوراقًا أخْرى وأصبحتُ خارجَ ما يجري. أخذني الأمنُ إلى باب يلفظني إلى الخارج، وكان الإسعافُ وقتَها يُغلقُ أبوابَه ليتحرّكَ عائدًا إلى المستشفى ممتلئًا بملامح الموتِ وألوانه.

telegram @yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

الساعة السابعة مساءً. موجةُ غبارٍ خفيفٍ تُحيطُ بالمطار، وشروخٌ دمويّةٌ تحجبُ بصري وكلَّ حوَاسِّي. يعملُ جسدي تحتَ حالة الطوارئ، لم يعد يمنحني انتباهي إلّا مهمّةَ اللحاق بالإسعاف. كانت أضواؤه الحمراءُ تتقلّبُ في عينيّ، بعضُ السيّارات لا تفسحُ له الطريقَ بسهولة، وأخرى تلتحمُ به من الخلف وتُجاريه في سرعته، مغامرة مجّانيّة من مغامرات الطرقات يعيشها بعض المراهقين. سيّارةٌ أخرى تتقدّمني وتقرّرُ فجأةً الانعطافَ من أقصى اليسار إلى شارعٍ فرعيٍّ في اليمين. حركةُ المرور والمباني والبشر في هذه المدينة، كلّهم بحاجةٍ إلى مساعدة طارئة، إلى إسعافٍ إلهيٍّ يعيدُ الحياةَ إلى هذه الجثّة. الزمنُ والبشر وكلّ شيءٍ هنا يدورُ حولَ وهمٍ مقدّسٍ كما يدور جَمَلٌ معصوبُ العينين في معصرة سمسم.

.. نعق جوّالي بنغمةٍ مشؤومة، عرفتُ أنّه رقم الطبيب، فأجبتُه بسرعة. كان يتكلّمُ من عربة الإسعاف، بفرحةٍ تنتشر في صوته. ابنتي بدأت تشهقُ وتزفر، حدث ذلك بعد أن أوقفوا عنها الأجهزةَ ظنًّا منهم أنّها ماتت، فشهقتْ شهقتَها الأولى في الحياة، وأتبعتْها

telegram @yasmeenbook

ببكاءٍ متّصلٍ ثمّ عادت رئتاها إلى الخمود. فأوصلوها بالأجهزة مرّةً أخرى. لكنّ الطبيب يراه مؤشّرًا جيّدًا.

وصلنَا إلى المستشفى في أقلّ من ربع الساعة، وغابَ الإسعاف في مدخلٍ خلفيٍّ خاصّ. فأوقفت سيّارتي بالمواقف الأماميّة، وعند الحراسات الأمنيّة بباب القسم وجدتُ توصيةً بمنعي من الدخول. كانت مثلَ هدنةٍ صغيرةٍ مع يومٍ قذر. فأخذتُ كوب شايٍ من كشكٍ بالمدخل، وخرجتُ أدخّنُ وأراقب الزائرات يدخلنَ بباقات الورود وعُلبِ الشوكلاته. هنا في هذا المبنى تدخُل المرأة وحدَها وتخرج بإنسانٍ جديدٍ تهبه للحياة. هنا يمارسنَ أمجادهنّ الأموميّة التي لا يستطيع أيّ رجلٍ فعلها. قد لا تحبّ امرأةٌ الأطفالَ ولا ترغبُ في هذه التجربة، لكن لا توجد امرأةٌ لا تحبّ لحظةَ الولادة، لحظة ذلك الأقوى من كلّ ألمٍ والأبعد من كلّ لذة، تلك الزلزلة لكلّ النشوات المخزونة في جسد المرأة. عندما تتباعد ساقَاها وتتحوّل إلى مدفع للإله يقذف بمخلوقاته من جوفها.

.. رأيت رأسَ الطبيب يطفو بين السيّارات كما لو أنّه الصندوقُ الأسود لطائرةٍ معطوبةٍ، فرميتُ سيجارتي وانسكبَ كوب الشاي على الرصيف. لمحني ألحقه، فأسرع بمشية المتلفّت المرتبك. ركبَ سيّارتَه على عجلٍ وغادرَ البوّابةَ إلى الشارع. فتوقّفت أتابعُه من خلف السور. فتحت الإشارةُ ضوءها الأخضر، فابتعد بسيّارته الصغيرة، وتركني كصبيٍّ منسيٍّ في مكان غريب. مشيتُ أتلصّص على السيّارات من نوافذها، أتملّص من ثقل الموقف بخفّةِ مشية

telegram @yasmeenbook

الصبيّ. كانت هناك عبارةٌ بخطٍّ كاريكاتوري في زاوية الزجاج الخلفيّ لإحدى السيّارات..: «لا تستسلم».

تمضي حياتي كمشيةِ الصبيّ الذي كُنْتُه، إلى البقالة، بحذاءٍ كبير، ظنّ أنّه سينال احترامَ الشارع. وبريحٍ منهكة القوى تتدحرجُ أيّامي كعُلبٍ معدنيّةٍ فارغةٍ تمرّ بين قدمَي الصبيّ فيدوسها. أشتبك مع الهوامش كما يهاجمُ الصبيّ مافيا الهِررة في صناديق القمامة. وإلى خارج سياق المهمّة أتّجه، كما ينقّب الصبيُّ حول أعمدة الكهرباء عن عشرة ريالاتٍ ضاع عنها صاحبها. أسترق النظر خلفَ هذه الجدران الوجوديّة بأسلوب الصبيّ وهو يتلصّص من الشقوق على أملاكٍ مسَوَّرةٍ لموتى يسمعُ عنهم ولم يرهم. وفي منتصف المسافة من رحلة الصبيّ اللّاهية إلى البقالة القريبة، ينبح كلبٌ من بيتٍ مهجور، كما تنبح الأفكارُ من رأسي الآن. وبمشية صبيٍّ عائدٍ من البقالة بلا خبز، أصحُو كلَّ صباحٍ بلا شهيّة، وأخرج إلى الحياة بكتفَين محمّلتَين بحطب اللّامعنى.

.. بعد يومٍ بلا نوم، كنتُ واقفًا هناك كمَن لم يكن وجودُه ضروريًّا، كأحدٍ أهدرَ حياتَه وهو يرى أشياء كان يظنّها لا تخُصّه، وأنفقَ عمرَه وهو يحمل ظنونًا ليست له. يقف عند النهاية متأمّلًا في كلّ ما كان يظنّه.

يتكثّفُ في صدري شعورٌ بالغُربة، كأنّي أسير في عالم الموتى. الأضواء البيضاء تؤذيني، صوتُ الإسعاف يحفرُ في رأسي، يواكب

telegram @yasmeenbook

كلَّ تلك الأصوات المحبوسة التي تضجّ فيه. تحوّل دماغي إلى سجن أصواتٍ تقوم بأعمال شغب، أجراسٌ كثيرةٌ تدقُّ من كل اتّجاه، استغاثاتُ غرقَى يصرخون صرختَهم الأخيرة، نساءٌ هائجات، نعيقُ غربان، حكّةُ أظافر على جلد جافّ، أغاني طلال مدّاح، مكائن خياطة، وصوت جدّتي تنادي بغضب: «القراش كلت الزرع يا ملعون الوالدين». كانت هذه الجملة بصوت جدّتي وهي تولول ويدُها مرفوعةٌ بزاويةٍ منفرجة؛ تشكّل أكبرَ المسؤوليّات والأخطار في حياتي. أنجحُ كثيرًا في ردّ الأغنام قبل أن تعبث بالزرع، وأعود بياقة ثوبي البالية وأسناني المفقودة لمتابعة «جزيرة الكنز» على التلفزيون، وإذا ما فشلت فما هي سوى خبطتَين أو ثلاثٍ من عصا أبي، قبل أن أحتجي بثوب جدّتي وتقرعه عنّي وهي تردد: «تحجَى وتنجى». ظللنا نكبر وتتّسع دائرةُ الأخطار في حياتنا، حتّى حطّ رحالنا في زمنٍ يقول لنا كلَّ صباح: مرحبًا بك في عالم انعدام الأمن النفسيّ.

..سقط الجوّال من يدي على الرصيف، قلّبتُه وتحقّقتُ من موته، فأصابني هلعُ الانفصال كأنّما فقدتُ إحدى حواسّي فجأة، أرى وأشمّ وأذوق وألمس وأسمع وأتكلّم؛ لكنّي كمَن يقف في الخارج، لم أعد أعرفُ من منّا أنا الآخر، هو الوحيد الذي يعرف عنّي أكثر ممّا أعرف عن نفسي، أشعرُ دونه بأنّ السبل منقطعةٌ ومغلقةٌ بيني وبين العالم.

.. دخلتُ إلى صالة المستشفى. كنتُ منقطعًا في وحدتي بين كلّ

telegram @yasmeenbook

هؤلاء الناس، يحول سيلٌ من التخمينات بيني وبين كلّ ما حولي، تسكُن حَدقتَيَّ الساعةُ المعلّقةُ على الجدار، وكأنّ كلَيْنا ينتظرُ موتَ الآخر، أنتظرُ وصول هذه الابنة إلى ضفّة الضوء، لا أن تجعلني أقضي بقيّةَ هذا الليل في المقابر المظلمة.

الرجالُ هناكَ يحومُون حولَ مكتب المدير المناوب، ينتابهم مخاضٌ ذكوريٌّ يخصّهم، ينتظرون خبرَ اللحظات الأولى في حياة مولودٍ جديد. وكنتُ أرى كلَّ مَن يصله الخبر يبدأ في الاتّصالات والرسائل ويهبط على أحد الكراسي مرتخيًا.

كان أحدُهم بقربي ومعَه ولدٌ لا يهدأ، التهى عنه أبوه لحظاتٍ فسقطَ على رخام المستشفى. قام مسرعًا نحو أبيه وكتفاه تهتزّان إلى أعلى وهو ينشجُ. فبسط له الأبُ يدَيه، فغمر الطفلُ وجهَه فيهما وانهمرَ بالبكاء.

قلَّبْتُ كفّيَّ، يدَايَ قاحلتان، لا عينَين غائمتَين تقصدهما وتسفحان دمعهما مطرًا، لا طرائدَ للعرّافات يُحدَّقنَ فيها بكحلهنّ، لا كعبة أو عُشًّا تثوي إليهما الأحزان، أو تلتوي بهما الرقاب، لا نخلَ فيهما أو بيتَ نمل، وليس ثمّة مريمات، ولا هناك قافلة تسير ولا كلاب تنبح..

هذَا وما زلتُ أنزعُ يدي من جيبي، لعلّها «تخرج بيضاء من غير سوء»، أحاولُ انتزاعَ النهاية من فم الموت، أمسحُ غبارَ الفزعِ من عينيّ ونظّارتي. قلِقتُ وأنا أجلس مع وحدتي العجوز دون ثالثنا

telegram @yasmeenbook

الذي يصحبنا دومًا. ذهبتُ إلى مكتب المدير المناوب لأبلغَه بأنّ جوّالي لا يعمل. وقفتُ بباب مكتبه الصغير وهو يحرّرُ ورقةً أطولَ من المعتاد ولها نسخةٌ صفراء. كانتْ نموذجَ استلامٍ لثلّاجة الموتى، يكتُبها بخطٍّ جميلٍ وحروفٍ حيّةٍ وثائرة. قاطعتُه وسألته عن الحالة، فردّ بأنّ كلّ التحديثات تصله عنها، وهي باقيةٌ على حالها. أبلغتُه بأنَّ جوّالي لا يعمل وأنّي سأنتظر في البهو الرئيس. كان يستمع إليَّ وهو ينظر في الورقة الأطول من المعتاد. ثمّ عادَ بلهفةٍ إلى كتابة نموذج الوفاة الذي بين يديه..

عَبَرتْ لحظةٌ متمهّلة، صقيعٌ يسري في عظامي، انطفاءٌ بطيءٌ ورحيم، كأنّ حياتي تُطوى كما تُطوى الفرُش في اليوم الأخير من العزاء. مُجرّدٌ من كلّ ضعفٍ وكلّ قوّة، محمولٌ في غيمة حُزنٍ على وشك الهطول، يعلو صدري ويهبطُ مثل حقيبة مسافرٍ تدور وحيدةً على حزامِ استلام الأمتعة، نسيها صاحبُها وغادرَ على رحلةٍ أخرى.

أجمعُ نفسي من كلّ الجهات، في وجه رياح أسًى معتمةٍ تزحف نحوي. حاولتُ الصعود لأتحقّق أنّ لديّ ابنةً وأنّها على حافّة الموت. ولم يسمحوا لي بمواجهة هذا الاشتباه الأخير.

استدرتُ خارجًا من المبنى، كُنتُ أَكبرُ في كلّ خطوةٍ عشرات الأعوام. وصلتُ إلى الباب هَرِمًا مثقلًا بالتعاسة. لا أعرف مكانًا أحبَّ من صدري سأدفنُ فيه ابنتي، ولا أعرف طريقةً للحياة بعدها، هناك مرارةٌ تتأجّجُ في عقلي، خميرةٌ سوداء تغمرهُ، لا أظنُّ

telegram @yasmeenbook

بعدها أنّ هناك عزاءً سرّيًّا في كلّ شهرٍ قمري. بل عزاءٌ يوميٌّ مؤبّدٌ سيكون ضيف حياتي القادمة..

.. في الباب كان رجلٌ وزوجته يعبران وابنتُهما تتوسّطهما. تُمسك البنت بيد كلّ واحدٍ منهما، وعلى وجهها تتراقص فراشات البهجة. تأمّلتُها وتخاطفنا بَرقة سِن، فتبادلنا ابتسامةً صريحة. ثمّ أكملتِ الطفلةُ مسيرَها برقصةٍ مرتجلةٍ بساقَيها البديعتَين.

سمعتُ نداءً بالميكروفون: «مرافق بنت أروى صالح.. الاتّجاه إل مكتب المدير المناوب». بلغتُ بابَ المناوب، وكان يلفُّ قلمَه بين إصبعَيه ويُمسك الورقةَ الأطول من المعتاد بيده الأخرى. سألني: ما اسمُها؟

قلتُ:

كان

... اسمها حَنّا

***

انتهت.

8 نوفمبر -2023، نجران.

telegram @yasmeenbook